

عَيْنَاكَ قَرِيبِي

المشرف الفني : نبيل البقيلي

تصميم الغلاف والمخطوط : الفنان حسين ماجد

الغلاف الاول : مقطع من لوحة للفنان جورج ف. واتس اسمها « قاطنة الحميمية المفرطة » / ١٨٨٦

غادة السمان

غَيَاك قَدِيرِي

جميع الحقوق محفوظة
لمنشورات غادة السمان

بيروت - لبنان

ص . ب ١١١٨١٣

تلفون : ٣٠٩٤٧٠

٣١٤٦٥٩

- الطبعة الأولى : شباط (فبراير) ١٩٦٢
الطبعة الثانية : تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣
الطبعة الثالثة : نيسان (أبريل) ١٩٧٥
الطبعة الرابعة : تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٧
الطبعة الخامسة : كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩
الطبعة السادسة : كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠
الطبعة السابعة : كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١
الطبعة الثامنة : أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥
الطبعة التاسعة : آذار (مارس) ١٩٨٩
الطبعة العاشرة : حزيران (يونيو) ١٩٩٣

الفداء

أبي ...

بصمت وتواضع :

إليك من نزع المعركة ،

بعد ما علّمتني كيف أحارب قَدَري

عادة

عيفا ك قدوي

(*) تُرجمت هذه القصة إلى الألمانية والرومانية والانكليزية

نوافذ البناء الواسعة المضيئة تنظر إلى الشارع المزدهم كأنها عيون كبيرة
بلهاء .. وهي وراء إحدى النوافذ رصينة جامدة كمعادنها، انكبت على بعض
الأوراق حتى كادت تلتصق بها وجهها ، كأنها تهرب إلى أوراقها من
عالمها .. ولماذا الهرب ؟ ..

لا شيء في حياتي سوى عملي .. أنا سعيدة .. لا شيء ينقصني .. أملك
حريتي وقدرتي كأني رجل في هذه المكاتب .. أنا حرة سعيدة ..
سعيدة ! .. لماذا تظل تكرر لنفسها أنها سعيدة ؟

عماد قال لها ذات مرة : « عندما نكون سعداء فعلاً لا يخطر لنا أن نتساءل
إن كنا كذلك أم لا ؟ السعادة تصبح جزءاً منا . انك لا تتساءلين إذا كانت
يلدك في مكانها أم لا .. نحن نتخس الأشياء عندما نشك بوجودها .. »
لماذا تستعيد كلماته بهذا الحنين ؟ أنها لا تحبه ..

لا .. لم تحبه قط .. كانت تتسلى به كما يداعب أبوها جارتهم الحسناء
كلما التقاها على الدرج .. وكما يتلهى أي رجل في المدينة بالفتاة التي تروق
لعينه .. وهي « رجل الدار » .. لقد نجحت في أن تكون « رجل الدار » ..
نجحت في تحقيق قضيتها .. انتصرت .. ولكن قضيتك كانت فاشلة منذ
البداية .. كنت تحاربين الشمس .. تريدن أن تشرق من الغرب .. أن
تخرس الأمواج وأن يضلّ الليل طريقه إلى دروب المدينة ..

.. لقد انتصرت .. أنها فاشلة كبيرة .. أفكارها تمزقها .. تحاول الانكباب

على المصنف أمامها .. لا تستطيع .. انها تتعذب .. تكره أن تضعف حتى
أمام نفسها .. انها تتعذب .. تعيش مرارة نصر عجيب .. لماذا لم يقتلها
أبوها يوم نبأوه بأن بنتاً خامسة ولدت له ؟ ..
بنت !

جاءت بوقاحة ، وبالرغم من تهديداته لأمها .. بالرغم من تائمها
وأدعيتها وذعرها ..

لماذا أبعده عن فراشها عندما ثار وأرغى وأزبد وهجم عليها بسكينه يريد
ارجاع الطفلة إلى بطنها بالقوة ؟ كان يريد صبيّاً بعد بناته الأربع .. وريث
أجداد دكانه وحلقته على رصيف الشارع .. وريث نرجيلته .. لا يريد
لحمرها أن يخبو بعد وفاته .. لماذا لم يدعوه يقتلها ؟ ..

يريد ولداً يسميه طلعت .. اسمها طلعت !! .. يريد صبيّاً لا يضطر
لسجنه في الدار بعد أن يفوز بالشهادة الابتدائية .. لا يخاف عليه من السير
في الشارع وحده ! ..

وهي قد وعت قضيتها منذ البداية .. منذ اكتشفت ان اسمها طلعت ..
منذ البداية وهي تكافح ضد الشمس .. تتعلق بأذيالها وتشدها كي تشرق
من الغرب ..

أصرت على اتمام دراستها بعناد كان يثير في نفس أبيها سروراً خفياً يفشل
في إخفائه .. لم يعد يخاف عليها من السير في الشارع وحدها .. لأنها لا
تتهادى بدلال .. لا تعني بمظهرها .. لا تثير اهتمام أحد .. تكره الرجال
والشباب . لا .. لا تكرههم .. الكراهية اعتراف بوجود الشيء المكروه
وهي لا تحس بوجودهم على الإطلاق .. لا تريد أن تحس بوجودهم ..
وإلا فلماذا ترفض الدخول لتحية أية خاطبة شاء لها حظها العاثر أن تدقّ
بابهم ؟ ..

أحزان مبهمه تنمو في هدوء صمتها وفي غمرة احساسها القاتم نحو أبيها ..

ترى فيه عالمها .. مجتمعا .. تتحداه .. تكرهه كراهية شفاقة لا حقد فيها .. تشفق عليه .. تريد أن تكون رجلاً كي ترضيه .. كي تذله .. تدفع أي ثمن لنصرتها .. تريد أن يشعر بأنها تساويه .. تريد أن يحبها ، لأنه يحترمها لا لأنه يشفق عليها كما يشفق على اخوتها وعلى أمها .. كان من الممكن أن تكون كأما الدليلة .. انها تثار منها ولها .. تنتقم من ضعفها وتنتقم لضعفها في كل صف اجتازته .. في كل شهادة فازت بها ..

يوم حازت شهادتها الجامعية رمتها بوجه أبيها كأنها تصفعه .. وفي المساء ومقته بنظرة تحدّ قاسية عندما فاجأته يغازل الجارية على الدرج .. لم تتجاهلها بكبرياء جوفاء كماداتها .. انها سعيدة باحترامه لها .. سعيدة بإذلالها الخفي له .. سعيدة .. يجب أن تكون كذلك ..

بعد شهر واحد يتجمع لديها مبلغ كافٍ لشراء سيارة .. سيارة صغيرة لها وحدها .. سيسهل عليها التنقل بين أماكن عملها الكثيرة .. الدائرة في الصباح .. مكتب الشركة بعد الظهر .. الدروس الخاصة ليلاً حتى الحادية عشرة حين تعود إلى الدار منهكة نائرة تصبح في وجه أمها لأن طعامها لم يجهز ثم تنتقده مهما كان نوعه ، كما يفعل أي شاب في الحي .. ألا تجلس مع أبيها كل أمسية تناقشه في السياسة والمشاريع والدخل القومي ؟ .. ألا تدخن نرجيلته بينما هو يضحك فرحاً بها وفرحاً بظلال الذعر والمعجز في عيني أمها ؟

تشر فجأة بأن جمرات النرجيلة تحرق خديها .. وان دخانها يخنقها .. وانها تود لو تدفن خبيثتها في صدر أمها وتحبشها وهي ترتعد عن عماد .. كم تتمنى أن تعيش معه .. يتشاجران ويتعاتبان ويلاحقها بين جدران الصفر وهي تعاتبه كعصفور فاجأه الربيع .. ويجلسان أمام الموقد في ليالي الشتاء .. يعد لها القهوة بيده وترشفها من فنجان وينصتان لأنامل المطر التي تدق نافذتها .. ولا يفتحان النافذة حتى الصباح التالي ! .. ما هذه الحواطر

السخيفة ؟ انها لا تحب عماد.. كل ما في الأمر ان المصنف بين يديها قد انتهى وان عليها أن تجلب سواء وتغرق في عملها .. تنظر إلى ساعة يدها .. لم يحن موعدها مع سلوى بعد .. تستطيع أن ترتب مصنفات اجتماع الغد .. تنهض نحو الخزنة الحديدية في ركن الغرفة.. تفتحها ولا تسمع أنينها البارد. تخرج مصنفاً .. تستدير لترجع إلى مكانها .. تقع نظراتها على شبحها المتهاالك على الزجاج أمامها .. لا تدري لماذا تتأمل نفسها بفضول .. مظهرها عادي .. بدلت كل جهد كي لا تثير في الناظر إليها أي انفعال .. إنها جميلة .. تعرف انها جميلة لولا نظراتها السوداء التي تخفي عينين مدهشتي البريق .. جوع ونهم ، وحنين وحرمان تختلط فيها مع ظلال حمر لكاهنة شهوانية نذرت عروساً لإله من رخام .. جميلة لو انسدل الشعر المشدود بقسوة إلى الخلف ، ولو خلعت رداءها الواسع السميك يياقته التي تشبه ربطة عنق رجل ، ولو برزت بعض ملامح خصرها النحيل كطوق ياسمين .

عماد وحده كشف سرها يوم رآها للمرة الأولى في الشتاء الماضي عندما جاءت تلقي على أخته دروساً خاصة في اللغة الانكليزية .

قالت أخته : « أستاذة طلعت .. أقدم لك أخي عماد » .. نظر إليها .. لم تتجاوزها عيناه المتفرستان كما يفعل الرجال جميعاً .. ظللتا تتأملانها ببطء .. عينان عميقتان خضراوان نجوسان وجهها كما صفة عطر مثيرة.. وأحست أن نظراتها تترع عن وجهها النظارة السوداء .. ترمي بها قرب قلبي أخته .. تحل ربطة شعرها بحنان وتدغدغ آلام الخصل المشدودة .. نظراته تعريها من ألقابها وشهاداتها وردائها .. تزحف برعونة للذلة فوق ذراعيها .. تبعث فيها دفء شمس لم تلمسها .. تنحط بثقلها على الصدر فيزداد شموخاً ويرتعش في حناياه شيء ما ويتخبط .. تعصر الخصر فيترنح بلدة عناقيد أثقلها الطيب .. رحلة نظراته في مجاهل عوالمها أرهقتها ، كشفتها .. جعلتها تشعر انها مضحكة وسخيفة .. وانها ليست الأستاذة طلعت .. وانها ليست

سوى ممثلة اكتشفت فجأة ان ثيابها مضحكة وان دورها مضحك وانها بحاجة إلى البكاء في صدر ما .. وأحبّت عينيه يومئذ .. ولم ينقذها من ارتباكها إلا ترحييه الذي خيل إليها انه يفيض سخرية :

— سمعت عنك كثيراً يا أستاذة طلعت .. أهلاً وسهلاً .. ابتسامته بعثت في أطرافها دفئاً مفاجئاً مسعوراً .. ابتسامة رجل لامرأة .. ما أروع وما أسوأ أن تكون امرأة ! ..

ولكنها جلست برصانتها المعروفة .. كررت الدرس لأخته ببرودها المعروف .. صافحته بيلاهة قبل أن تمضي .. ولما غادرت الدار أحست أن عينيه تطلان من غيمة معلقة قرب أحد أعمدة الكهرباء .. تفضحكان منها بسخرية .. تتحديانها . لا تدري لماذا خلعت نظارتها بعصية وبللت شففتيها الجافتين بينما تدلت السفلى متعبة مثقلة . وليلتها وقفت طويلاً أمام مرآتها قبل أن تنام تحصي كنوزها برضى البخيل وحرص البخيل وخوف البخيل حينما يشعر بأنه لن يستطيع إلا أن يدفع وأن يمنع .. وقد منحت ! .. منحت أكثر مما تستطيع أن تمنح أية امرأة .. منحت الكثير لعينه ..

لماذا تستعيد هذه الحكاية السخيفة ؟ المصنف بحاجة إلى ترتيب .. لا .. يجب أن ترتكز أفكارها .. هذا أسلوب المراهقات في الخيالات .. يجب أن لا تذكره .. تريد أن تذكره .. تريد أن تستعيد تلك الأيام لحظة لحظة .. تتلمظ بالذكرى .. لماذا أهرب من التفكير به وكأنه شيء يخيفني ؟ .. إنه لم يكن شيئاً بالنسبة إليّ .. انها مغامرة كتابة مغامرة لأي شاب .. جميع الشباب يستعيدون ذكرى مغامراتهم .. هدأت نفسها لهذا التعليل وخيل إليها أن عينيه تردادان خضرة وغموضاً ..

لقد منحت ! .. أجل .. منحت الكثير ..

يوم مرضت أخته أصرّ عليها أن تبقى .. جلسا معاً يتحدثان .. أعد لها

القهوة بيديه .. القهوة رائعة عندما تشربها معه .. تختلف عن طعم القهوة في هذا المكتب .. الزمان يحمد أمام نظراته .. حديثه الذكي يخاطب أوثقها .. يتجاهل نظارتها السوداء .. يثير ضعفها وحينها إلى ما لا تدري .. لم يكن في عباراته جملة واحدة للأستاذة طلعت .. انه ينكرها ويستنكرها .. يتجاهلها .. وظلت أخته كريمة مريضة .. وظلت تزورها لتطمئن إليها أو لتطمئن إلى انها ما زالت مريضة .. لا تدري .. كانت تريد أن تكون معه .. تشرب قهوته .. يحدتها .. يدفئها .. نظراته تجرداها من الأستاذة طلعت .. تهدأ تسريح .. تعب .. لا .. لم تكن تذهب من أجله وإنما كانت تطمئن إلى أخته ..

ويخيل إليها ان عينيه تضحكان .. تشدأنا .. لترى الأشياء من جديد خلافا .. كاذبة .. لماذا ظلت تزورينه في الصيف بينا أخته وأهله جميعاً في المصيف خارج المدينة ..

كنت أتسلى كأى شاب .. كأبى .. كزميلي في العمل .. تدفن رأسها بين يديها .. تعرف انها تخدع نفسها .. لم تكن تتسلى . انها قضية حقيقية كانت أكبر من أن تواجهها .. هربت منها .. هربت من شفتيه النهيتين وهما تجوسان وجهها في ليالي الصيف ..

كان حنانها يمزق أقنعة برودها .. فتتهدد على صدره .. تخفي رأسها بين رقبته وكتفه . تدفن دمة لا تريد له أن يراها .. وهو يفهمها ويتجاهلها ويحبها .. وهو يقول انه يريد أن يتخذها من نفسها .. وترفع رأسها وهي تضحك..تعرف ان ضحككتها لم تخدعه..نظارتها لم تخدعه..لا تستطيع أن تخدعه. وفي الخريف منذ شهرين .. وقبل عودة أهله من المصيف عرض عليها أن تشاركه حياته ! جمدت ، ضحككت ، ذعرت لكلماته . ثارت « الأستاذة طلعت » . كادت تهوي . غلبها حنين مبهم إلى دار تفور في إحدى زواياها أبحرة طعام أعدته بيديها ، ووقفت خائفة تنتظر أن يتذوقه ويشفي عليه كأنما

تعلق مصير عمرها كله برضاه وإعجابه .. كادت تقول نعم . تسحيل إلى انثى . الانثى ماتت يوم اسموها طلعت . ماتت . تماسكت فجأة وأعدت نظارتها السوداء إلى عينيها كأنها سدة تحتمي به منه .. تعلققت بثوبها ذي الياقة التي تشبه ربطة عنتى رجل والذي انطلق هارباً إلى دارها .. لم تبك .. لم تقل شيئاً .. جلست مساءً كما دتها تسمر مع أبيها وانكبت على نرجيلته .. أمها قروح وتجيء بالبحر .. والدها يقهقه ضاحكاً خاضعاً .. وهي كالنمرة ، كآله اسطوري تنفث الدخان من فمها ومنخريها .. ولكنها لما أوت إلى غرفتها ، خلعت ثيابها في الظلام وانهارت في فراشها .. كانت تخاف حديث المرأة ! .

انتصرت .. لكن صوته ظل يتململ في عتمة ستائرها : « سأنتظرك كل أمسية في داري .. ستعودين يوم ترين الأشياء بعيني .. وتجدين نفسك .. ستعودين » ..

ولكنها لم تعد .. انتصرت ولم تعد .. ترى الأشياء بعينه بعض الأحيان ، ولكنها تتمرد ولا تعود : لقد انتصرت في أن تهزمي نفسك .. قضيتك منذ البداية كانت فاشلة .. نصرك فيها أعظم فشل .. أنت فاشلة كبيرة أيتها المرأة للرجل ! ..

تقرأ بعض الأرقام في الملف أمامها بصوت مرتفع . صوتها لا يحميها من أفكارها .

زميلها في الغرفة يتململ . تعود إلى صمتها .. يجب أن تسرع في اعداد المصنف . غداً اجتماع الشركة ، لشدة ما أضحت تخشاه .. كلما وقفت لتتكلم بصرامتها المعروفة ، ينصت لها الجميع بإجلال وإكبار .. وفجأة تطل عيناه من مكان ما .. تهرب نظراتها إلى الملفات .. تنزلق عيناه على المنضدة الكبيرة وتقفزان عابثتين بين المصنفات والأرقام المعقدة تتريان لها .. تغمران لارهاقها .. تقهقهان ساخرتين .. تذكرانها بالقهوة الدافئة وديب أنامل

المطر على نافذتها .. تشير ان حينها إلى مقهى يستند إلى بحر له شمس دامية الغروب .. وترقص الأرقام في الصفحات كديدان مرعبة كما ترقص الآن .. كما ترقص الآن ..

تتململ في مقعدها وتنفض عنها الحواطر . تنظر إلى ساعتها مستنجدة . انها تشير إلى الثامنة إلا عشر دقائق .. بعد نصف ساعة يحين موعدا مع سلوى .. ستخرج كي لا تتأخر . انها تتحرق شوقاً لرويتها ، لم ترها منذ أعوام .. منذ أن جاءت إلى المدرسة ضاحكة ونفضت عن يديها غبار الطباشير للمرة الأخيرة ، فالتمع في أحد أصابعها خاتم ذهبي غاص قلب طلعت لمراه .. واختفت .. وقالوا انها تزوجت .. وقرأت بعد أعوام انها أنجبت ولداً . جميل من سلوى أن تذكرها وتهتف لها بعد كل هذه الأيام طالبة مساعدتها في اللغة الانكليزية . قالت انها سترحل مع زوجها إلى انكلترا بعد أشهر ولا تريد أن تبدو بلهاء هناك .. وضربت لها موعداً ظلت منذ أيام تنتظر حلوله بفارغ الصبر . تريد أن ترى سلوى وتشفى برويتها . تمنى أن تشفق عليها ، تتخيلها سمينه مشقة اليدين ، أنفها محمر بعد شجار حار مع زوجها ، تنظف احدى النوافذ بينما ريع الشتاء تصفر في غرف الدار وتلسع طفلها الذي يبكي .. واثقة من انها هي سري سلوى هكذا ..

تخرج من المكتب دون أن تودع زميلها في الغرفة . لا يرفع رأسه إليها : لقد اعتاد ذلك منها ، عامل المصعد يفتح لها الباب مرحباً . لا تنتبه لوجوده ، يتوقف المصعد . يفتح بابه . تخرج . لا تنسى التأكد من عنوان سلوى قبل أن تضيق في زحمة الشارع . تحاول أن تتسلى عن خواطرها بمراقبة العابرين . الوجوه كلها متشابهة . كلها تحمل قلقها وخيبتها وتمضي إلى مكان ما .. تنفر الملامح والألوان .. يشدها جميعاً خيط مبهم من الحسرة والخيبة .. كأنما لا ترى إلا نفسها في كل شيء .. وعينا عماد ترصدانها ، تلاحقانها .. تشير ان حينها إلى رائحته وشبابه .. شخصيته المثقفة وطموحه .. تمنى أن

تفنى عند جلوره ليمتصها قطرة قطرة .. لن ترى الشمس إلا خلال وجوده ..
ترتعد .. انه برد الشتاء بلا ريب .. يدب في شريط المخازن الطويل ويتغلغل
في ذرات بردى المتعبة حيث تمر ، ويتكدس في أعماقها ثم يطفو عند أناملها
بزرقة المريضة ..

تسرع في مشيتها . تخلف بردى متجهة نحو محطة الحجاز لتمتطي إحدى
السيارات العامة .. ساعة الحجاز تطل عليها كامراً مصلوبة في صدر الشارع
كأنها سيزيف المدينة .. عقرباها يكادان أن يشيرا إلى الثامنة .. نظراتها قد
تسمرت بها بينما هي تسير نحوها كدمية متحركة عُبِثت مسناتها حديثاً ..
يخيل إليها انها تسمع دقاتها .. أبدأ تدور مثلها .. الساعة السابعة تخرج إلى
العمل .. الثالثة ظهراً تأكل .. الخامسة .. تخرج .. لا جديد .. هي لا تملك
إلا أن تعمل .. الساعة لا تملك إلا أن تدور .. تدق .. دقة واحدة .. دقتين ..
ثلاثاً .. أربعاً .. ثمان .. لا تبدع شيئاً ..

يكاد العقربان يشيران إلى الثامنة تماماً .. لو تحدث معجزة مرة واحدة ..
لو تحول الساعة برداً .. لو تهادأ لحظة وتستسلم عقاربها لاكداس صقيع
الشتاء .. لو تنفجر .. تدق عشرين دقة .. ألف دقة .. لو تتخلى عن آليتها
الدليلة الخنوع وتصرخ : « أنا متعبة .. سئمت عقاربي صريرها .. لن أدق
الليلة ثماني دقات .. افعلوا ما تشاؤون » ويتجمع حولها رجل يخون زوجته
وامرأة تشتم فتاة بادلت حبيبها السابق حباً بحب ، ورجال غاضبون لأن
زوجاتهم لم يلدن ذكوراً ، وعوانس وحرّاس يسرقون عند مطلع الفجر
بعد أن تنتهي مهمتهم .. يتجمعون جميعاً ويرجمون الساعة بينما ينهار زجاجها
تحت الأقدام بلدة إله اختار مصيره ! ..

لا مفر .. درب خلاصها لم يولد .. الساعة تدق .. تمزق أعصابها .. تعد
الدقات بحرص وحرقة صجيية : دقة .. اثنتين .. عينا عماد تضحكان بسخرية ..
الأمثادة طلعت ! السيدة طلعت .. خمساً .. ستاً .. دخان الرجيلة يتفجر في

صدرها .. سبعا .. أبواق السيارات تقهقه ساخرة .. الكهل الذي عبر منذ لحظات يبصق باشمئزاز .. ثماني .. خرست الساعة .. عادت العقارب إلى دورتها اللامبالية .. صمت أزرق مريض يخيم على كل شيء .. تسرع في سيرها إلى دار سلوى .. ستسى .. ستغمس في عملها .. لم تعد تفكر في شيء .. لم تعد تشعر إلا بوخزات البرد الذي يصفع وجهها بينما السيارة الكبيرة تسبح في أنوار المدينة الباهتة .. تصل . تهبط . تسير بضع خطوات . يطاردها متسول بعناد مزعج . ليس بين نفودها قطعة صغيرة له . تقول له ذلك . تقسم له . يخيل إليها أن صوتها ضئيل كوجه طفل مريض .. يظل المتسول على إلحاحه كأنه يعتمد إحراجها . تشعر بحاجة إلى البكاء .. يمر بها شاب .. يصبح بالمتسول أن يدعها . يذعن المتسول بسرعة ويختفي مع صدى صوت الشاب عند المنعطف . تحس بحاجة مجنونة إلى أن تركض وراء ذلك الرجل المجهول وتسير بجانبه . يحميها . يدفئها بصوته القوي الحشن .. مخلوق رائع هو ذلك الرجل ! ..

تقف أمام دار سلوى وهي ترتعد برداً . تتحقق من اسم زوجها على الباب قبل أن تفرع الجرس : « محمود سالم » . لم تخطئ الدار . تنسل إلى أذنيها ألحان خافتة حنون . ليست هذه بالبداية التي توقعتها . كانت تنتظر عويل طفل . شجار زوجين ..

تضيق أنفاسها . تهوي بيدها على الجرس بانتقام أحرق لم تستقم ردود فعله بعد .. تفتح لها سلوى بعد فترة صمت طويلة . تضئء النور أمام الباب . تهوي نظراتها عليها وكأنما في وجهها جواب عن كل أسئلتها .. ونراها وبمزقها المشهد ! ..

جميلة نضرة .. يترقق ندى النشاط في ملامحها المتوردة . مسامها تصرخ بأنها سعيدة وحارة .. تنكمش في ركن الباب .. البرد يفور في عروقها .. سلوى ترحب بها .. تمد يدها لتصافحها .. تهب غيمة دفء عجيبة على

وجها .. وتضرب خديها بعد أن تنزلق على خطوط جسم سلوى البديع الذي بدا مرسوماً بالنور المتوهج وراءها داخل الغرف . تصافحها بيدها المرتعشة ، تلحظ أنها أضحت امرأة مذهلة النضج والاكتمال ، تشدها سلوى من ذهولها إلى الداخل .. إلى حيث تغمرها غيمة الدفء .. دفء صجيب الرائحة يفوح من ثنايا الدار . يختلف كثيراً عن دفء المكتب والشركة والمؤتمرات .. دفء يذكرها بموقد عمار ..

وتجلس بعد أن تصافح زوجها وتبادل معه كلمات المجاملة شبه منومة .. غيمة الدفء تسيطر على حواسها .. تغالبها وتكاد تغلبها .. فيها الكثير من رائحة ليالي غرفة نوم وردية معطرة .. وفيها من عير حمام فستقي الرخام قرن بين جدرانها ورذاذه ضحكات نشوى .. وفيها من أشجرة حساء شفاف تبدو خلاله رسوم صحن أنيق .. وفيها من زقزقة طفل يزحف مبتسماً وتراه يتمسح بقدمي سلوى .. غيمة الدفء تمزقها ، فطارها تسعها .. الياقة التي تشبه ربطة عنق رجل تضيق حول عنقها تضيق . تكاد تلهث . ترتعد . تسعل . سلوى تعانقها وتجلس بجانبها . ما أحلى رائحة العطر المنبعث من شعرها . ما أجمل عقدها الماسي . بريقه المضيء ذو الألوان المتعددة سكين من قوس قزح تغوص في صدرها .. يا لنعومة ثوبها . يا لجلدها الذي صبغته لمسات أنامل رجل وردياً شفافاً كفجر ..

جلست تحدثها وقد ازدادت انطواءً ، ستصمد ، ستتأسك . كم تبدو جميلة لو ارتدت مثل ثوب سلوى . « دروس اللغة الانكليزية ضرورية فعلاً » ، دعينا نبدأ منذ الآن « عطرها رائع ، إذا التقت بعباد ستضمخ له جيداً به . « احضرت لك كتاباً سهلاً ونافعاً » . ما أجمل ساقها في الحذاء ذي الكعب المرتفع . طفلها جميل تمنى أن تضمه وتقبله . « ما بالك يا سلوى مرتبكة .. دعينا نبدأ » . لماذا يقرب زوجها ويقف وراءها كأنه يحتضنها ؟ لماذا يعذبها محمود يتكلم . يبدو انه يقول شيئاً .. « عفواً ، ماذا كنت تقول ؟ » ..

— سلوى خجلة منك .. لقد نسيت ان الليلة عيد زواجنا ، لكنني لم أنس ..
اننا نعتذر منك ولكننا سنقضي سهرتنا في « شموع » . لماذا لا تسهرين
معنا ؟ أرجو أن تقبلي ..

— شكراً لكما .. انني متعبة جداً . لا .. لن أشرب القهوة . يجب أن
أذهب « .. تودعها بشيء من الحشونة ، تنطلق هاربة من الدار العجيبة ..
لا أحد يريد لها .. طفلها الرائع ما زال يلوح لها بيديه .. تخاف منه ، تشعر
بالمعجز أمامه .. إنها ساعة بلهاء .. لا تبدع شيئاً .. مجرد ذرة تافهة على
هامش الحياة .. ساعة مصلوبة .. الزمان موجود سواء تمردت عقاربها
أو دارت .. وهي تدور وتدور وعبثاً تدور .. غيمة الدفء انسكبت
وراءها .. تلاحقها .. تدفع بها في الدرب إلى دار عماد .. لا تستطيع أن
تقاومها .. جزء من غرائزها .. تحملها في ثنانيا جسدها .. في نبضات قلبها
المرتعش .. تطرد من صدرها دخان الرجيلة .. لماذا لا تنظفيء جمراتها ؟ ..
الشمس لن تطلع . إلا من الشرق .. من يارزها ؟ .. الليل يتحدى الدروب
والابدية .. وهي تعرف الطريق إلى صدر عماد .. إلى دفء عماد وجدرانها
الصفراء المهجورة ؛ شيء ما ينفجر في رأسها .. عيناه تطلان من كل شيء ..
من الجدران حولها .. من وجوه العابرين . من أصابع يدها التي تحاول أن
تمسح بها النار عن جبينها . من معطفها حول رقبتها .. عيناه ، حارتان
عائبتان ممزقتان .. عيناه ، بكل ما فيها من حنان وثقة وأحلام .. يمر رجل
ويقول شيئاً ما . لا تسمعه . عيناه تطلان من كل شيء مجنونتين قاسيتين .
ترصدانها كفدر . لا تستطيع أن تهرب من عتابها اليأس .. « يا عماد .. قل
لي ماذا أفعل .. انتظرنني » متعبة .. تكاد تهوي .. رائحته تفوح من المطر ،
من الاضواء ، من أحجار الشارع . ألف الف تحبه وتحشاه .. ألف ألف تحن
إلى شفتيه ، تطوفان مجاهل عوالم يخفيها ثوب ومعطف .. « يا عيناك .. يا آفاق
الرعب .. إلى أين أهرب ؟ » لماذا تهرب وهي ترسمها في كل منعطف ؟

يا ألف حنينها إلى جدرانها الصفر العارية : تهرب منها لترسم في كل زقاق
داراً له نحن إليها ..

« عيناك قدري لا أستطيع أن أهرب منها وأنا أرسمها في كل مكان
وأرى الأشياء خلالها » . بذهول تردد : « عيناك قدري » .. الفكرة تنتشلها
من عجزها ويأسها .. تدب في عروقها قوة عجيبة مدمرة .. تريد أن تخلق
شيئاً .. داراً .. أسرة .. غيمة دفء .. تركض فجأة .. لا ترى الناس
الذين يرمقونها بدهشة .. لا أحد يهمها . تركض .. شعرها يتبعثر .. نظارتها
تسقط .. تنحطم تحت قدميها .. تركض .. المطر يبللها . سيارة مسرعة
تنثر الأضواء على وجهها . تبسم .. رائحة عماد في كل شيء .. في الظلمة
والمطر والبرد والريح . كيانه المبهم يحوطها . يحنو عليها . يناديه .
المصنفات تهرب أمامها .. الأرقام تقفز منها مسعورة . تدور في المياه المتجمعة .
تذوب في وابل الأمطار وتنحدر معها في مجاري المدينة .. وهي تركض إليه ..
ماذا ستقول له ؟ .. لن يكون هنالك متسع للكلام .. الشمس لن تطلع
إلا من الشرق .. الامواج لن تخرس .. الساعة لن تدق الليلة تسع دقائق ..
عشر دقائق .. ستهمس : أنا سعيدة .. سعيدة بين أبحرة غيمة الدفء ..
ماذا تقول له ؟ يكفي أن تهتف : « عيناك قدري .. لا أحد يهرب من
قدره يا عماد » ..

الإصابع المتمردة

المكان يعجّ بدمى حية ، وروائح العطور والأصبغة المختلفة تختلط بضحكات نساء جمعهنّ أمرّ يشتركن فيه جميعاً ، ألا وهو الرغبة في لفت الأنظار ، والقوز بالإعجاب .. واحدة تحلق إلى صورتها المرتسمة أمامها في المرأة ، ثم تنقل نظراتها بسرعة فأر مدحور إلى عيني صاحباتها ، وكأنها تستجدي ومضة حسد تؤكد لما جالها . وأخرى جلست تحت أتون من شمس آب يدعى « الشوار » بجفف الشعر ، بينما أخذت المساحيق التي كانت تغطي وجهها تسحّ وتسيل ، فيبلو كاللوحه التي يخلط عليها الفنان ألوانه المختلفة .. وثالثة بعثرت شعرها الحلو كييادر القمح السخية ، وأسلمته إلى الحلاق ليجزّه ، والحصل الذبيحة ترنح على شفة الموسى الحادة .. وإلى جانبها جلست تاتا « فاطمة » ، وقد امتنع وجهها ، وانقبضت أساريرها ، وكأنها تضع مولودها الأول ، وعلى رأسها أكنداس كريمة الرائحة ، وضعها جاك الحلاق المحبوب ، لتحيل الحرير الأسود إلى صوف ماعزي أصفر !! .. فقد صرح دودي « دريد » صاحب الكاد « الكاديلاك » الحمراء المكشوفة في يارتي « حفلة رقص » على مستوى أبناء أصحاب الملايين ، بأن الرجال يفضلون الشقراوات .. والواقع انه حينما تعطف ورمى قنبلته كانت أفكاره تنور حول بوسي .. قطته المدللة .. الشقراء !

وسط هذا الجمع الذي يتناقل الإشاعات كما يلتهم طعامه بلذة وبلاهة .. وقف جاك بقامته الفارعة وشعره ذي السالفين الطويلين وشاربيه الدقيقين اللذين كانا يثيران تنهدة أكثر من عجوز غنية .. وتمر الرؤوس تحت يديه ،

فهذا رأس أشقر مغرور .. ثم رأس كستنائي عجوز .. وبعده رأس أسود
تتنهد صاحبه كلما لامست يد جاك طرف خدها .. فالليلة حفل المدينة
الراقص الكبير .. وجاك اليوم بطل الساعة .. كل واحدة تتوسل إليه أن
يجعل منها اسطورة السهرة ، وملكة بجالها غير المتوجة .. وكأن بقدرته أن
يعيد خلقها ..

وهو يتحدث .. ويجيب .. يضحك ويغمز كالأمير الساحر .. يصفق
حينما يطلب المقص ، ويضرب على الطاولة بطريقة موسيقية ، فتفهم نينا
مساعدته الصامتة أنه يريد المشط أو الموسيقى ، حسب ايقاع الضربات ..
الواقع أنه من الأسهل عليه بكثير أن يحرك لسانه ويطلب ما يشاء ، ولكنه
يعرف أن هذه الحركات قد تبهر الجالسات ، وتضفي عليه شخصية
خاصة .. وتجعله سيد من قص "الشعر منذ آدم إلى يومنا بلا منازع ..

يتحرك بين النساء برشاقة راقص الباليه .. لا يرفع عينيه عن الكتلة القابعة
أمامه إلا إذا فتح الباب .. حيث تنجبه عيناه في نظرة خاطفة .. وفي قلبه دعاء
صامت .. « أرجو ألا تكون سوسن » ... وغالباً ما تكون سوسن .. إذ أنها
مغرمة بأصابع السيد جاك الذي كان ذات يوم « ابن جيرانها » في حي قديم ..
ولكنها اليوم تعرف جيداً كيف تحافظ على مركز زوجها المرموق — بالرغم
من عشاقها العشرة — .. وتعرف كيف تتجاهل صديق الطفولة الذي طالما
انتظرت مرووره في الزقاق المعتم وراء نافلتها الضيقة .. فهي اليوم السيدة (...)
زوجة السيد مليونير ! ..

وجاك يعمل بسرعة مذهلة .. يزّم شفّته ويقطب جبينه قبل أن يبدأ
بتمشيط إحداهن حتى ليخيل للمرأة أنه حائر في اختيار أنسب تسريحة تبرز
بجالها الفتان .. حتى إذا ما انتهى منها التسع في عينيه بريق ساحر يشبه الإعجاب ،
ثم يميل برأسه إلى أحد الجانبيين كأنه فقد صوابه أو كاد بلحال المنظر ..
ويهمس برقة متناهية : غائقة « أي رائعة » ! وفي الأغلب تكون هذه الكلمة

موجهة لشتاء امرأة عمل بجاهداً على نبش ونفش ما تبقى من شعرها الذابل ..
ويكون الشيء الوحيد الرائع هو .. جهوده الجبارة ! .. فتندّ عن شفيتها
المتهدلتين بسمة تظهر صفاءً من أسنانها الاصطناعية البديعة .. بسمة بلحاك
حلاق النساء المرح ، وصانع النوى الماهر لسهرة المدينة الكبرى !

وهو يدور بين النساء .. ويضحك من نفسه ! من بساماته الآلية وتعليقاته
السخيفة .. من اللامعنى الذي تنطوي عليه كل حركاته .. ويشعر بالاشمئزاز
من ذاته .. من ذله وصمته .. ولكن ذلك كله جزء من رأساله الذي يعيش
به . يشتري به خبزه .. وزوجته .. وثيابه !

ها قد مرت عشرة أعوام وأصابعه الطويلة الدقيقة تتحرك بآلية مفاجئة ،
بينما تلف الرؤوس تحت يديه .. وتتغير .. وهو واقف .. يعدّ الحساء للقاء
حبيبها .. والعروس لليلة زفافها .. وسوسن لعشاقها .. كالجائع في وليمة
يعدّها بنفسه للمتخمين !

وتكر الأيام والشهور .. والرؤوس تدور وتدور .. وتمر تحت يديه ..
حتى صارت بالنسبة إليه رأساً واحداً وحشياً .. يعيد ويعيد قص شعره
وصبغه وتمشيطه كل ثمانية .. منذ ولد وحتى يموت .. وتجمع قدره الممل
الفارغ بين ساقى مقص رهيب .. يشعر بأنه لن يقوى قط على اختراقه ..
لأنه جبان ! وهو يعرف أنه جبان .. انه يجهل كيف يصادق أو يشكر أو
يجب .. بالرغم من العواطف التي يضجّ لها صدره .. انه جبان ! وقد اعتاد
خوفه وضعفه كما اعتاد كل شيء .. الاشاعات والفضائح التي تقصّها
إحداهنّ بعد أن تقسم عشر فتيات أو أكثر على كتمان .. السر ! وتنهّدات
العوانس ، بين يديه وتحديقهن المرعب إلى شاربيه وشفتيه .. وكأنه سلعة
في سوق العبيد ! .. واعتاد أن يرى أنظار النساء جميعاً تتسلل نحو الباب
كلما دخلت امرأة جديدة .. فتفحصها العيون النقادة بقسوة .. كأنها تصفّعها ..
ثم يبدأ الهمس لاحصاء عيوبها التي لا يلحظها الرجل عادة أو يعجب بها على

الأغلب .. لقد اعتاد ذلك كله .. واعتاد أن يقص شعر سوسن .. ويصفقه ..
ويعدّها للقاء عشاقها . وكأنه مجرد آلة شوهاء .. كم كان يتمنى لو تمردت
أصابعه ذات يوم .. ولكن كل شيء يدور حوله ويدفعه .. وهو واقف
بسلبية ذليلة .. كل ما في الأمر أن أصابعه تعمل بميكانيكية حيوانية مريضة ..
تلمي أعماقه الإنسانية المعزولة . تلمي كيانه البشري الذبيح .. أجل ! إن
رووسن ياردة فارغة .. كميونهن المملوكة بساتن الكحل .. أنها متشابهة إلى أبعد
حد .. كرووس الخراف التي كان يذبحها أبوه الخزار كل صباح .. فيسيل دمها
المسفوح على قدميه .. ويلطخ ثيابه .. ويهتز شاربه الكبير لذّة وطرباً كلما
طار رأس الخروف واستقر على الأرض .. كانت لذّة أكثر بكثير من مجرد
اعداده للسلخ والبيع واستغلاله في الكسب الخلال .. كان في عمله وسيلة
مشروعة لاشباع تمرد .. رغبته العقيمة في الخلق .. لقد فشل في أن يخلق
خروفاً فكان عزائه في .. قتل الخراف ! وذاك لن ينسى قط يوم حاول
أبوه أن يجبره على ممارسة مهنته .. كان ذلك قبل وفاته بعام واحد .. أي
حينما كان جاك في السادسة عشرة من عمره .. انه ليذكر جيداً كيف رمى
بالسكين التي دفعها اليه أبوه وتفجرت الدموع من عينيه وكان طفولته المهمة
تجمعت في هذه اللحظة المريعة .. بينما ضرب والده الخروف المسكين ، بلذّة
وجبروت كعادته ، وكأنه إله بين مخلوقاته .. وقال لابنه باحتقار وغضب
محموم : « اضرب يا جيان .. ماذا تخشى ؟ »

منذ ذلك اليوم تأكد أنه جيان .. ولم يجرؤ على الاقتراب من فراش
والده الذي مات وهو يهذي بالخراف المذبوحة ..

ومرت به الأيام ، ولكنه ظل دائماً خصلة الأعشاب البحرية الرخوة
المستسلمة للتيار .. يوم أخرجته أمه من المدرسة ، بعد وفاة أبيه ، لم يعترض .
لم يقل لها إنه يهوى الدراسة ، وأنه متألم ووحيد وضائع ، وأنه يحب سوسن
ابنة جيرانه الحسناء ويتمنى لو أنها كانت له ..

وهو لم يقل شيئاً حينما كان يجد في مخدع أمه قفازاً في الشتاء وربطة عنق حمراء في الصيف ! ولم يقل شيئاً يوم أخذته أمه ليعمل مساعداً لحلاق ادعت انه قريب المرحوم والده .. ولم يقل شيئاً حينما وقعت نظراته المدعورة على عنق هذا الحلاق القريب .. ورأى أن ربطة عنقه حمراء : كالي كان يجدها في غرفة أمه !

فُتح باب المحل فجأة .. فاستيقظ من أفكاره .. حمداً لله .. انها ليست سوسن .. سوسن التي أحبها دائماً .. بالرغم من كل شيء أحبها .. ان التفكير فيها يعيد إليه بعضاً من انسانيته الضائعة .. يؤكد له احساسه البشري .. ولكن .. عندما يزيئها لعشاقها .. وعندما تنظر إليه بعينها البهاوين المتجاهلتين ، يشعر بانسانيته الدليلة ، بعمره الضائع وفشله المرير ..

وحين تأمره بأن يقص شعرها الذي يعبه .. يحس بالام رهية في أصابعه .. ويتمنى أن يرفض .. يتمرد .. أن يفعل شيئاً .. ولكنه جبان كما قال أبوه !

إنه ليذكر جيداً كيف كانت تطف إلى نافلتها الصغيرة قبل أعوام طويلة .. تنثر شعرها المفسول متظاهرة بتجفيفه .. فيخيل إليه انه يشم عيره مسكراً منعشاً كغابة صنوبرية حلواء .. كم كان يعبد تلك الخصلات المبعثرة .. ويتمنى أن يجمعها بشفتيه .. ويدفن فيها وجهه .. ويحكى لكل شعرة الف والف غزل ! ولكنه كان جباناً حتى معها .. في طفولته لم يكن يجروء على ضربها حين كانت تنتزع منه لعبه .. وفي مراهقته تمنى أن يقبلها ذات مرة .. ولكنه لم يستطع ، بالرغم من أن عينيها كانتا تدعوانه بنداء حار كنسيم السهول الاستوائية ..

وليلة اشترى غلاتيها الحلوتين رجل غني .. لم يجروء هو على الشكوى .. كان دائماً مستسلماً وجباناً .. ومضت سوسن .. وخلفت في أعماقه جرحاً مفتوحاً تأكله ديدان الليالي بشراسة ووحشية .. وتألقت سوسن ، وتناقل

المجتمع حكايًا عشاقها الذين كانت تنثرهم حولها كما تنثر العطر على صدرها المثير .. وكان يسمع كل شيء .. ويعرف كل شيء .. ولا يملك إلا أن يزينها كلما جاءت ويقصّ الشعر الذي يعبدّه بميكانيكية مفاجئة غريبة ، فقد غلبت الآلية على انفعالاته كلها حتى كان حزنه على أمه يوم توفيت جزءاً من واجباته الاجتماعية .. جزءاً من الوجه المرضي الذي يقابل به الناس ويدفعون له ثمنه زوجة وخبزاً . وتزوج .. وكذب .. وخدع .. وأتقن فن الفنون : الرياء الاجتماعي .. فتألق وأصبح جاك ، حلاق الطبقة الارستقراطية ..

كم يتمنى ألا تأتي سوسن اليوم .. وكم يتمنى أن يضمها إلى صدره المتعب طوال عمره .. انه بحاجة إلى امرأة تمنحه ما لا يباع ولا يشتري .. وسوسن بالنسبة إليه تجسيد غريب خاطيء لهذه الأماني المبهمة ..

وفجأة .. انشق الباب عنها .. كان لا بد من أن تجيء استعداداً للحفل الراقص .. دخلت وشلال من ظلام ينسكب على كتفيها ، ويعربد على ظهرها البديع .. وخصرها النحيل يهتز بدلال مثير .. وثوبها الأحمر الضيق يعانق جسدها بشدة ويوحى للناظر بأنه شفاف .. وبأنه سخي كريم في عطاءه للعيون النهمة ..

وجلست إلى الكرسي أمامه وقالت بصوت أبح : « أريد أن أقصّ شعري وأصبغه أحمر » ! وتمنى أن يرفض ، أن يصرخ ولو مرة واحدة في عمره : أنا أحب شعرك يا سوسن .. شعرك الأسود الذي طالما حكيت لكل شعرة فيه مأساة وأملًا .. وألف أغنية غزل .. وأرفض أن أقصّه .. لأنني إنسان .. لأنني لا أريد .. لي ارادتي .. لست جباناً » .. ولكن يده الذليلة تناولت الموسيقى وبدأت تعمل .. يبطء في يادى الأمر .. والأفكار تضج في رأسه : يا لصوتها القبيح الذي سمعته .. لشد ما غيرتها الأيام .. ماذا فعلت بالضحكة الرنانة كالذهب المسفوح ؟ تريد أن تقصّ شعرها الذي يعبدّه .. وهو بالذات بدأ يفعل ذلك بذلّ ممزق مريع ! إنه لم يعد إنساناً .. إنه جزء من المشط

الذي يمشط شعرها .. يده مجرد امتداد عظمي للمشط العاجي .. انه جزء من
الأثاث الفاخر .. قطعة من قطع « السشوار » التي تعد رأسها للحفل .. انه
يفقد الآن كل ما بقي له من إنسانيته الضائعة .. لقد تجتمع عذاب عمره
كله في هذه اللحظة الأبدية بطولها .. ان صراخ النساء وجلبتهن طوال
عشرة أعوام قد تجتمع الآن في أذنيه .. ضارباً رأسه المتعب بقسوة عجيبة ..
لقد شتم نفسه .. شتم خيوط القدر التي تشده وتحركه كمروس خشبية ..
والمرايا التي تعكس لوجهه عشرات الصور من كل زاوية .. ورأى أن
وجهه خفيف .. خفيف كوجه أبيه حين كان يذبح خروفاً .. ويصبغ رأسه
بالدم الأحمر .. وسوسن أيضاً تريد أن تصبغ رأسها أحمر ! صوت أبيه
يلوي في أذنه .. اضرب يا جبان .. كم يتمنى أن يفرس الموسى الحاد في
عنقه الأبيض .. أن يفرسه بقوة ووحشية ثم يديره في الجرح حتى يتدفق
الدم الحار ويفسل يديه .. يفسل ذله وعبوديته .. ويصرخ بملء فمه ..
« لست جباناً .. لن أقص شعرها ! ولكنه لا يستطيع .. يعرف انه غير
قادر أبداً على إخراج البراكين التي تنبع من صدره .. ولا تصب إلا فيه ..
إن أصابعه في حاجة إلى الحرية .. وييديه حين مجنون لتمزيق دوامة الشعر
التي أخذت تلف وتدور أمام عينيه .. إن أصابعه الخنوع قد بدأت تنمرد
وتثور بقوة شيطانية لذيلة .. وتفقد مرونتها الآلية الدليلة .. ولكنه يخفق
في دوامة الشعر الأسود الطويل .. ولكل شعرة طرف حاد كنصل سكين
ينغرس في عنقه .. ووسط الضجيج والعذاب سمع صوت أبيه يضج بالتحلي
والتمرد : « اضرب يا جبان » .. وحاول بكل كيانه أن يضرب كما كان
أبوه يضرب الخروف ويتلذذ .. حاول أن يركز في أنامله عصيانه الملمس
على كل أيامه .. على طفولته وأمه المهملة .. والرجل ذي ربطة العنق
الحمرء .. ولكن التمرد ظل ، ككل أحاسيسه ، مخنوقاً .. دفيناً .. يمزقه ..
ولكنه لم يضرب ! وإنما استمرت اليدان في قص الغدائر بذل إنسان متألم
متعب ضائع ..

وأحس بأنه كان يلطخ نفسه بوحل أحمر قلدر حينما كدس الأصبغة الحمراء على رأسها .. ولما انتهى ونظر إليها أدرك أنها ماتت .. وإن المدينة كلها ستحتفل الليلة بمآتم سوسن في أعماقه .. سوسن .. نجمة الوحيد الذي هوى ..

ومضت سوسن ومعها كل ما بقي له من نفسه .. ومضى الجميع .. ونظر إلى نفسه في المرآة ورأى أن وجهه جزار يطل من عينيه ، ويصرخ فيه بسخرية محرقة : يا جبان ! جبان .. وبصقته جدران محله الفخم إلى الشوارع الرمادية .. فسار مستتراً بالظلال وكأنه يخشى من نفسه .. من خيبة عمره المهدور .. انه ذرة دنسة معزولة عن كل ما حولها .. يا لأصابه المتمرده التي تنقلص في إعياء مربع .. كم تؤله ! وساقته قدامه إلى الضاحية الصحراوية التي أقيم الحفل الساحر في واحة وسطها .. الاضواء تتألق من بعيد .. فيبدو المكان لعينيه كجزيرة الهناء المحرمة .. وصوت الموسيقى الخافت تحمله ليالي الصيف لأذنيه مع ضحكات نساء .. لا ريب أن ضحكة سوسن بينها ..

ويشعر أن كيانه الإنساني يتشنج ويفتت في صمت مفرج ، يزلزل أعماقه ، ويعصف بأعصابه .. ويتمنى أن يحدث أي شيء يدمر ما حوله .. أن يشعر بأن في الحياة ظاهرة طبيعية — على الأقل — تتجاوب معه .. ولكن كل شيء يظل في دورته الأزلية البلاء — كل شيء يتحرك بآلية وخآزة .. كعقارب الساعة .. كالشمس الدليلة ! حتى الشمس ، ما جروث قط على الظهور قبل أوانها .. وهو أيضاً .. آلة جبانة .. كملايين النمل التي تدب صباحاً وتعود مساءً .. بتفاهة مؤبدة .. يا للمدينة البلاء السادرة في هواها وصخبها وضجيجها .. دون أن تدري أنها تسحق نفوساً ونفوساً ! يا للمدينة التي تعربد وتضيء ، وكأنه ليس فيها قلوب متمرده يدمرها إحساسها بالعبث ، بالتفاهة ، والضياع !

كان قد اقترب كثيراً من مكان الحفل حتى ان الاضواء القوية أخذت ترهق عينيه .. وكأنه خفاش اعتاد ظلامه ، حاول أن يخفيها بيده .. فلم

يستطع .. لم يستطع تحريك يده !

لقد تمردت الأصابع ! واسترخت اليد إلى جانب الجسد الموهن ..
وفجأة أدرك بشيء من الذعر ويكثر من الارتفاع المبهم أن أصابعه أصيبت ..
بالشلل !

ولا يدري لِمَ أحس بلذة وحشية غامضة تحتاج دهاليز أعماقه ، وبألم
جبار عاصف كآلة تنفجر .. فتهالك على الأرض ، وأسند رأسه إلى حجر
أسود بجانبه .. بينما تدحرجت دموع حمراء من ثقبين مظلمين في وجهه ..
واقتربت منه قطرة ضائعة .. وأخذت تعوي وتموء بطريقة إنسانية مسعورة ..
فيها حرقة غريبة ولوعة مبهمة .. ولكن صرخاتها ضاعت مع دموع صانع
الدمى .. في ضجيج حفل المدينة الكبير .

ما وراء الحب

أيها الإنسان الغريب الذي يقودني إلى شاطئ لم أره ودرب لم أطأها ..
تراك ستمنحني الخلود حقاً بعدما فشلت في انتزاعه بنفسي ؟ تراك ستمنحني
الخلود الليلة عند ذلك الشاطئ الأسود الغامض الذي طالما حدثني عنه ؟

السيارة ما زالت قندس في احشاء الظلمة ، وقد خلفت أضواء المدينة
وراءها .. تندفع بسرعة شيطانية كوميض عينيه ، تدور بنا في المنعطفات
الساحلية الخطرة وأنامله الفنانة تتشنج فوق المقود .. وعيناي معلقتان بجانب
وجهه المحجب .. بشفتيه اللتين ترتعشان كظل معبد في غدير حالم .. بالاصرار
المبدع في انتصاب رقبتة كل ما فيه يذكرني يتحفز إله يستعد للحظة الخلق
الحاسمة ..

عجلات السيارة تثنّ ذعراً من سرعة هيّم . صريرها في المنعطفات
يفجّر في كياني نشوة تحدّ همجية .. انني أحيأ وأحب .. لا أريد أن أموت .
فالليل عجيبة طيب ودفء ورومي . وشذى زهر الليمون يفوح من البيارات
المجاورة سحابات خفية ، تحملي في ثرائها إلى قسم فستقية لا تعرف الهرم .
ترى هل يستطيع هيّم أن يبعثني في لوحة تفوح منها أنفاس زهر الليمون ،
ويسمع فيها هتاف الأمواج الابح ؟ لماذا أتساءل ؟ .. التساؤل بداية الشك ..
وأنا قد اعتدت أن أوّمن به منذ التقينا للمرة الأولى في معرضه الكبير ..
يلد لي أن أذكر تلك الأمسية من أواخر الصيف الماضي . كنت أحب
الرسم وأمارسه منذ طفولتي ، لذا لم أتردد في الذهاب لمشاهدة معرض هيّم ،

فنان المدينة الأول ...

وهناك التقيت بعينيه البنفسجيتين ، وكانت تحيط بهما عشرات من العيون
البله لفتيات يقرأن الصحف بالشوكة والسكين ويرتدين القفازات حتى أثناء
النوم .. كن يتهاقن عليه ويضاحكنه .. لا أدري لِمَ وقفت أتأمله بإشفاق
وذ هول . مسكبة البنفسج في عينيه كانت جافة ، وكنت أعرف أنني غيمة
عقيمة . كان يتظاهر بالمرح رغم سأمه ، ويضحك لصهيلهن الفاقع .. ولما
مررت بهم هتف بي في غمرة مزاحه : « وأنت أيتها العجربة .. هل
تودين أن أرسلك أيضاً ؟ » ويعناد بغل أجبته : « لا .. أفضل أن تعلمني
الرسم » ..

أعجبته وقاحتى فعاد يسأل : « لماذا ؟ » .

— علمني الرسم كي لا أموت .. كي أخلق لوحة استمرّ فيها أبداً ...

وتصادقنا .. وعلمني كيف أرسم ، وعلمته كيف يحب !

لكن مسكبة البنفسج ظلت عطشى في عينيه .. أتأملها الآن وأضواء لوحة
القيادة الباهتة تتأوج في سمائها .. ستظل عطشى لأنني لن أتزوج به .. وإن
مضيت ، فأنا واثقة من انه لن ينساني أبداً .. لا يمكن لمثل هذا الشاب أن
ينسى الفتاة الوحيدة التي رفضت أن تتزوج به رغم إلحاحه ، والتي آمن في
الوقت نفسه بأنها أحبته حقاً ..

ألثفت إلى الوراء . المنحنى يبتلع أضواء المدينة ، الناس يموتون هناك .
لن أموت . بعد قليل نصل إلى الشاطئ المنشود ، سأقف أمام هيّم ليرسمني
في ضوء القمر . ليخبرني بين أهدا به ويصعدني نجمة عند الأفق . ليبعثني
دفقة في موجة وثنية الأمازيج . وردة مغارية في قمة ما عانقتها سوى الغيوم
والنسور . لينبثني قصيدة هوجاء في جبين عاصفة .. أتراني أنحو بهذا الأسلوب ؟
أبي قال إن عليّ أن أصنع خلودي بنفسي وأن لا أحد يصنع للآخرين
خلودهم ، وإنه لا جدوى من أن يرسمني هيّم .

ورغم رأيه هذا ، لم يعترض حينما ارتديت زي الفجرية ، ولم يعترض حينما غادرت البيت منذ وقت قريب وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل ، ولكن صمته كان يهذي ، وكنت أفهم هذيان صمته كما يفهم هذيان صمتي .. منذ طفولتي وأنا أجادل معه دون أن ينطق أحدا بكلمة واحدة . صمته كان يعاتبني متخوفاً هامساً : أرجو ألا يكون للعامل الذي صعقه التيار صباحاً أمام شرفك صلة بتراجعك هذا .. لماذا قبلت اليوم بالذات أن يرسمك هيثم بعدما كنت ترفضين عرضه وتفضلين الرسم بنفسك ؟ الخوف والخلود لا يتفقان ..

لن نتصيري على الموت ما دمت تخافينه ..

كان واثقاً من أن تعليله هذا هو الحقيقة ، ولم يكن مخطئاً . ورأيت بعينه ساعة غادرت البيت نظرة مفجعة الحزن والحنان .

هذه النظرة بالذات تخيفني وتملأني باحساس غربة سحيقة .. تذكرني أن كل إنسان يولد وحيداً ويصلب وحيداً وعليه أن ينتصر على الموت وحيداً أيضاً ..

ألثفت إلى هيثم . ما زال يقود سيارته بجنون . أحبه ، لكن نخيل إليّ انني لو مددت يدي لأتحقق من وجوده ، لاخرقت أصابعي جسده كأنه حلم زنبقة ذابلة .. لو حاولت الإمساك به لاستحال في قبضي إلى حفنة من دخان ، ولظلمت أواجه قلري وحيدة .. كأنه ليس هنا أمامي يقودني إلى الشاطئ الأسود ليمنحني الخلود .. كأنه هو أيضاً مصلوب فوق عمود من أعمدة كهرباء المدينة ..

اهرب من خواطري ، أدير رأسي نحو النافذة . القمر يتدحرج عند حافة الجبل البعيد . حيويته في ملاحقتي تثير حساسي .. الجبل يعلو . يلتحف غابات سوداء تتكاثر ، أنين العجلات كثيب . القمر يهوي في الغابة . يتمزق بين أغصانها . السيارة ما زالت تركض والقمر رغم تمزقه ينطلق

في الغابة . الجبل يسقط . القمر يعلو منتصباً . تتجمع أشناته في ثانية . يجمد في أوقيانوسات السماء . السيارة ما زالت تطير . لن أموت . رأسي ثقيل يسقط على المقعد . أصابع هيثم تتسلل من خلف المقعد وتغزو الحصل المتدلية .

رغبة بدائية بالبكاء تغمرني . أنا وحيدة وخائفة . أقرب منه وأتصق به . صوته يتحسنني عميقاً مثيراً وهو يسأل : « ما الذي يخيفك ؟ » أسمعها نجيب : « لا شيء » . أكره أن يموت الناس أمامي ، لأنهم يقنمونني بأنني سأموت فعلاً » . وكأسد لا يدري كيف استطعت ترويضه يتوسل قائلاً : « للمرة السابعة أرجو أن تقبلي بي زوجاً .. سوف أسعدك وستخلصين من هواجسك كلها » .

هواجس ؟ .. من يدري .. كلماته تلسعني . لن أتزوج . لا أستطيع . يجب ألا يكتشف الحقيقة .. اتماصك أمام توسل البنفسج العطش في عينيه : ألم نصل بعد يا هيثم ؟ »

لا يجيب . مقدمة السيارة نجيب . تتجه نحو طريق فرعية ضيقة ، عمودية على الشاطئ . عبق الماء المالح يوقظ شرهي إلى الحياة ، أحب البحر . أعتمد ان مدن الأعاق سعيدة لأن أسماكها خالدة لا يمكن أن تمرض أو تموت بلا سبب مثلنا ، ولأنه ليس فيها أعمدة كهرباء .. أما نحن فنمرض ونتعذب ونصلب على أعمدة الكهرباء دون ذنب ..

السيارة ما زالت تتقدم . نصعد تلاً رملياً صغيراً . نهبط فجأة ، وفجأة يبرز الخليج الأسود .. كذكرى شاحبة لأول حب ينبسط تحت أقدامنا بوداعة . يمنح نفسه لأنظارنا بسخاء . وأراه ، مدهش الاستدارة عجباً جذاباً كأسطورة .. وأراه ، يبدراً من نجوم ضيفية ، ما زلنا نقرب من الماء . ضوء القمر يتلألأ فوق رماله الرمادية . شاطئ أصداف تفتحت لشذى زهر الليمون الدافئ وسكبت لآلئها . الأمواج تلعق النور عن الشاطئ بخفة عرائس البحر .. يا مدينتي التي تهترى في الليل ، في الشاطئ البكر هنا تبث

أجساد الصحو والصيف والقمر .. أحس برغبة حارة في أن أمتلك هذا العالم
الدهش الذي يقع تحت حواسي . عاصفة النشوة أقسى من أن تحتملها سهول
الخيزران في نفسي ... هنا ، في مهرجان الليل سيمنحني الخلود . سيسكنني
لؤلؤة في حضن محارة ويودعني موجة من موجات الأعماق ..

— قف يا هيثم ودعنا نمش قليلاً ..

صوته رنين مرساة ذهبية في شطآن منبوذة ، يقول : « لا أستطيع الوقوف
هنا ، لأنني بحاجة إلى أن تكون السيارة قريبة مني .. سأصل بمدخرتها سلكاً
ومصباحاً صغيراً . هل تريدان أن أمزج الألوان في الظلام ؟ » .
لا أجيب . يتقدم بالسيارة . نحن على بُعد أمتار قليلة من الماء . يتوقف .
أقفز . اخلع حلائي المهذب . ادفن قدمي في بداءة الرمل . أقفز وأدور
وأرقص وأرحب بالآله في كل شيء . أسقط على ركبتي وأنا ألهث . تعبت
من صلاة النشوة . أطمع نفسي بالرمل الحي . الموت هنا يبدو مغرياً . لن
أصلب على عمود كهرباء في الشارع . لن تأتي السيارة التي تنوح وهي
تلملم الموتى من الأزقة لتسحقني .. سأظل روحاً شابة تهوم في الشاطئ
الأسود ، تحرسه ، تترج مع أنسام نيسان وشذى زهر الليمون ..
هيثم يرتب أشياءه وفرشاته وألوانه . مصباح باهت يضيء قرب اللوحة
المعلقة بعد أن وصل سلكه بمدخرة سيارته . يجهز بعض الاسطوانات ،
يعمل بخفة أسد يصنع وليمة للخلود . لحن غجري حالم يغمر سحر المكان
كسحابة ضباب ملونة .. يقترب مني .. عيناه تمطرانني شهباً . فراشات
مرحات تتطاير في مسكبة البنفسج . يقول لي : « تمهدي فوق الرمال السود ،
يجب أن أنتهي من اللوحة قبل مطلع الفجر ... أقسم إنني سأصنع لك الخلود
الليلة »

لا أجيب . ليته يجلس بجانبني . أحدثه طويلاً عن الحقيقة . ليتنا نصنع
الحياة قبل أن نصنع الخلود .. يخيل إليّ أن الخلود يمكن أن يتفجر بعفوية من

لحظة حماسة حقيقية للحياة .. لكنني أجب من أن أواجه حقيقي .
هيم يبدو منغمساً في عمله . يهتف بي : « دعي ثوبك يسقط على
كتفك اليمنى . ويكشف عن جزء من صدرك » .
ذعرٌ حقيقي يسوطني . سيكتشف الحقيقة . لا أستطيع ، لا أنحرك .
يعاتبني : ألا تثقين بي ؟ أم انه عنادك ؟
من قال لاني لا أثق به ؟

أكشف عن كتفي اليسرى وجزء من صدري ..
يصرخ غاضباً : « قلت لك اليمنى » .

لا أنحرك . يتجاهل عصياني أنا المتمردة قبل أن يخلقني . يستمر في الرسم ،
شيء ما في سحر الشاطئ يسخر منا . يهتف بنا أن نصنع الحياة قبل أن
تفكر في الخلود . يقول إننا لن نخاف الموت إذا عشنا لحظة حقيقية واحدة .
الذين لم يعيشوا فعلاً هم وحدهم الذين يخافون الموت .. وهم الذين يفشلون
في أن يصنعوا الخلود . وأنا محرومة من أن أحيأ . قريباً يختطفني موكب
الحريف دون أن يزهر في جذبي ربيع .. دون أن أرسم اللوحة التي طالما
حلمت بخلقها وحدثت أبي عنها .

هيم ما زال غارقاً بين خشبته ومصباحه وألوانه . رائحة زهر الليمون
واللحن العجري يملأني حياة ودفئاً وأملًا .. ذات يوم سأرسم اللوحة .
سأحس انها نبتت من الأرض فعلاً ، وإن لها جذوراً تنغرس في الشمس
وفي الصخر وفي العاصفة وجذوراً تلبس بين أهداي وأغصابي وانها عالم حي
يمزج وجودي الصغير بالوجود الأكبر ... وانني يوم أرسمها سأظل فتاة
صغيرة لا تهرم ولا تموت ولا تمرض كالأسماك . يوقظني صوته قائلاً :
« أغمضي عينيك » .

— لماذا ؟ ..

— أيتها العنيدة . أغمضي عينيك .. أريد أن أرسم الوداعة والطمأنينة

في وجهك ..
— أخاف أن أغمض عيني .

بصرخ نائراً : « قلت لك أغمضيها .. عنادك عجيب ! »
لا مفر . أغمضيها . الشاطئ يذبل . النجوم تنطفئ . اللحن الفجري
يفرق في كهوف سحيقة . رائحة الليمون مشحونة برطوبة الفناء . هدير
الأمواج يعلو . موجات سود حاقدة تهاجمني . تحتلني . تحملني إلى ليل
المدينة المهترئة . الشارع أمام دارنا مهزوز زائع يتحبّب اليوم في كواته ..
أعمدة الكهرباء وحدها تبدو صلبة حقيقية ، صامدة كأعواد مشانق عطشى
لشبهات الذعر .. هنالك عمود ما أقيم لأجلني . أرفض أن أتحرك . أنا على
الشرقة . الموجات السود تلطمني . الرجل المجهول يسير في الشارع . يقف
أمامي على الرصيف يناديني . يقول وبين شفثيه ضحكة شيطانية انه سيصلح
كهرباء دارنا . يتعل قطعتين من الحديد . يتسلق العمود . رأسه يفقد مظهره
الإنساني ويستحيل إلى رأس فار . يتسلق العمود : إبقى إنساناً ، لسنا بحاجة
إلى الكهرباء ... لا يسمع . يصل إلى الأعلى .

يعبث بعدد من الأسلاك . شهقة خفيفة . يهوي إلى الرصيف كتلة من
فحم وذعر واستسلام . يستعيد رأسه الإنساني . عيناه فجوتان ينسكب دم
مظلم منها . تهمهم أصوات غامضة بأنه مات .

السيارة التي تنوح وهي تلملم الموتى من الأزقة تحمله وتمضي .. يولد من
جديد على الرصيف . أريد أن أصرخ . أن أحذره . لا أستطيع . يتقدم .
يصعد من جديد . يصعقه التيار . يهوي . تنوح السيارة . يولد من جديد .
يتسلق العمود . يهوي . يصنع العدم أمامي عشرات المرات وأنا لا أستطيع
أن أصرخ . موجة خفية تشدني عن الشرقة تحاول أن تصلبني من كتفي
اليمنى وصدري فوق أحد الأعمدة . وأعول فجأة بهلع حقيقي بدائي :
« لا أريد أن أموت .. لا أريد » .

ذراعان تحيطان بي . تهزاني . هيثم أمامي يمسح دموعي ويهدئي . ما
زلت على الشاطئ الأسود . القمر والصيف وأنفاس زهر الليمون . من
قال إنني كنت أصرخ ؟ .. لم يحدث شيء . أبي كان على حق حينما ذكرني
بالعامل الذي صعبه التيار فأت أمام شرفتي . هيثم يشدني إليه وبريق مجنون
يلتصع في عينيه :

— لن تموتي .. لقد خلدتك .. زرعتك نجمة في هذا الشاطئ .. تعالي ..
أنظري إلى اللوحة ..

أنهض معه . اللوحة أمامي تلتصع مع الفجر الذي بدأ يبعثر نخصلاته .
أرى فيها غجرية ثرية الشعر بدائية التورد . عيناها مغمضتان باستسلام
صجيب . الصحة تتفجر من كتفها اليمنى وطرف نهدها العاري حيث تركز
نظراتي والدم يتوهج في مسامي .. وأصرخ فيه :

— لماذا عريت كتفها وصدرها ؟ .. لقد رفضت أنا ذلك ..
يجب مفتخراً : « رسمت الأشياء كما أتصورها .. وقد يكون الواقع
أكثر جمالاً . أعتذر » .

وأعود أتأملها . أتأمل وجهها الساذج الوديع . هذه هي الفتاة التي أحبها ..
رسمها دون أن ينظر إلى وجهي بينما كنت وحيدة أصلب على أحد أعمدة
المدينة كما صلب التيار صباحاً ذلك العامل المسكين . هذه غريمي . أتمنى أن
أغرس الدبابيس في كتفها العارية وصدرها المتفجر صحة . لو يعرف ...

أحس بحاجة لأن أعترف له بالحقيقة . أتوسل إليه بأن يحطمها هي ويحني
أنا . سأفقدته إذا أخبرته . سأظل صامته ، وقريباً ينتهي كل شيء . الفجر
يكاد يطلع . يجب أن نهرب من هذا المكان . لقد منحها الخلود ولم يمنحني
إياه . يجب أن نهرب . أخاف من الوقوف أمامه في فجر هذا الشاطئ ،
حينما يكون كل شيء ناصعاً وحقيقياً إلا أنا .. إلا أنا أخدعه بالثوب الملون
والشعر المتمرد وأطواق الفجرية .. دعنا نعود يا هيثم . جمودي أمام لوحته

لا يهمه . يبدو واثقاً بها وفخوراً . ليتني أحطمها . يللم أشيائه بسرعة .
نعود إلى السيارة . يدير محركها وأنا أهتف : « أتوسل إليك أن تسرع !
دعنا ننسحب قبل أن يطلع الضياء . »

لهفتي تدهشه لكنه يطيع . لا يرفض لي طلباً . السيارة تزجر ولا تتحرك .
أقفز منها وأرى أن عجلاتها قد غاصت في الرمل حتى نصفها . أتوسل إليه
أن يحاول من جديد . أستميت في دفعها من مؤخرتها . العجلات تدور
في مكانها وسحب كثيفة من الرمل تتناثر حولها .. السيارة تزداد غوصاً في
الرمل . النور بدأ ينسكب من مكان ما . هيثم يقول انه من المستحيل أن
تتحرك السيارة . من أية فجوة ينسكب النور لأسدها بجسدي . ينخل إليّ
انه يولد من كل ذرة رمل . من الأفق .. من انفضاضات الأمواج .. من
صفاء الزبد .. من كل شيء إلا من صدري .. الفجر يولد ندياً بكرّاً وحشي
الصفاء . هيثم يقترب .. يجب ألا يراني في النور هنا ، حيث يغتسل كل
شيء بالفجر ويفتح للنور بلا خوف .. إلا أنا

.. يجب أن أهرب .. الضياء يتفجر من كل مكان حولي .. ينجدل
في حالات .. يدنو . يغمرني .. يجب أن أهرب .. هيثم ينظر إلى رعبي
متسائلاً .. إنه طيب وصادق ومخلص ، يحبها كثيراً حسناء اللوحة .. يظنني
هي .. لن أدعه يكتشف الحقيقة ، أنطلق فجأة هاربة من الشمس .. أعدو ،
عنادي وذعري نيران تلهب موطيء أقدامي . أنتزعها بصعوبة من الرمل
الهش وأظل أعدو .. وقع أقدام هيثم ورائي . متعبة . لن أمتسلم . يد
ثقيلة على كتفي .. تمسك بثوبي . أحاول انتزاعه منها وأظل أعدو . الثوب
يتمزق . ينكشف عن كتفي اليمنى وصدري .

اليد الثقيلة تسمرنى - وعينا هيثم تتأملان ما انكشف عنه الثوب .
غابات من دعر واشمئزاز وبؤس تغطي مسكبة البنفسج . أقف أمامه
كأن الأمر لا يعنيني بينما هو يتأمل آثار اللحم المعزق في كتفي وصدري .

يظل يتأملني بوجه جمّدت الصدمة ملامحه .
لا أشعر بنجل لقبح المنظر . أهتف به « قل أي شيء .. قل انني خدعتك ..
قل إن آثار السرطان في صدري تخيفك .. قل إن التشويه الذي أحدثته العملية
في صدري يخمش البنفسج المدلل في عينيك قل انك تحبها ، حسناء
اللوحة ، لا أنا ... انني سعيدة لأنك عرفت » ...

لا يجيب . يظل يحدق ذاهلاً . الوجود يبسط نفسه أمامي بعري صادق ،
وأنا أقف أمامه ببشاعة لكنها حقيقية . الآن أستطيع أن أنضم إلى الأشياء
أحرقها بالأمي وتحرقني بصمودها لتنصهر وتصبح كلاً واحداً يتصعد
من فحم إلى ماس . .
الآن أفهم ما كان يقوله أبي عن الشجاعة والإخلاص في مواجهة
الموت والوجود ..

سأرسم اللوحة .. لم يعد بيننا حجاب ..
هيمٌ ما زال جامداً . يده تتحرك بخنان عجيب لتستر كفتي ببقايا الثوب .
لست بحاجة إلى شفقة إنسان .. أحس اني قوية ومحبوبة كما لم أكن قط
من قبل . الوجود الذي كان قد تفاني بحتضني . الفجر ينعشي . يسكب
في تشويه صدري بركته وسطوعه . لم أعد مهجورة . هيمٌ يتأمل وجهي
والعرق البارد يتصبب منه . يدها تحيطان بوجهي بخنان حقيقي . تكادان
تخيفانه . لن يعيدني طفلة متعبة ضالة . لقد فقد تأثيره عليّ .. أحس انني
أتجاوز وأتجاوز مراهقتي وأخلفها ورائي في بحر الحب الضيق وما فيه من
أنواء سطحية ، وزبد يعمي الأعين ويلهبها عن حقيقة وجودها .. أشعر
بأنني في هذه اللحظة أنسلخ كلياً عن وجود تقليدي مبهرج ضيق ، وأرغمي
في محيطات شاسعة هادئة الضياء حيث يبدو كل شيء ضخماً وحقيقياً
وصامتاً ... اسطورة الحب أتجاوزها إلى آفاق جديدة من الرعب والحقيقة
والصفاء والألم .
هيمٌ أرثي لقوته ..

يحجبها كثيراً حسناء اللوحة ...
صوته الممزق يقول : « هل رفضت الزواج بي لهذا السبب ؟ »
أجيب : « ألا يكفي ؟ قال الطبيب الذي استأصله انه من المحتمل أن
يعاودني المرض في أية لحظة » ...
— لهذا كنت تبحثين عن الخلود ؟ .
— لا أدري .. لم أعد أخشى الموت وما زلت أرغب في الخلود .. وأنت
قد فشلت في منحي إياه .. انك تحبها هي .. لا تنكر ..
— إنني مخلص لنفسي .. ستزوج ..
تصفعني كلماته ..
— سيدي .. إن كنت تصر على الاستمرار في أسطورة الحب فأنا أكره
الصدقات ..
لا يجيب .. يعلو نحو السيارة : ينتزع اللوحة .. يحطمها على الصخر
يجنون .. في حركاته بكاء حاد مكتوم . الأمواج ترحف لتلتهم البقايا .. ألحق
به بعد فوات الأوان .
أسأله : « لماذا حطمتها ؟ »
— لا يمكن أن نمنح الخلود لشيء غير موجود ...
— كانت المدينة ستصفق لها طويلاً ...
— لن أزيّف بعد اليوم لتصفيق المدينة .
أرفع عيني إليه وأتأمله . ملاحظه تشف كما لم تشف الأشياء من قبل ،
عيناه سماء من فهم ومشاركة واستجابة عميقة .. عميقة . شبه استعطاف
ورجاء في وجهه يسحرني .
يسير ...
— إلى أين يا هبثم ؟
— سنسير حتى الطريق العام كي نجد من ينقلنا إلى المدينة ..
أنتزع خطواتي وألحق به ..

يحدثني كأنه يخاطب نفسه .

— لقد تجاوزت أراضي الحب الرخوة ، وبدأت ترخفين في الأرض البوار .. وبدأت تمسكين بأحجار النار للمجرد أنها صلبة وحقيقية .. سترسمين اللوحة .. انني أحسبك .

أسير إلى جانبه . صدري المشوه متكبر يعانق الضياء . الشمس تكاد تطلع . لم تعد تخيفني . أنفاس زهر الليمون تفور من الأفق . لقد استهلكنا أقنعة الحب ، واليوم نواجه قدرنا عاريين إلا من حقيقتنا . اسمعه يحدثني بحزن مصري خاشع :

— إنني أحترم عنادك وكفاحك .. أيتها الإنسانية ، هل تقبلين صداقي ؟ ..

بعد عشرات من حكايات الحب المراهقة .. بعد انهدام آكام من الأوهام الفضية ... بعد سلخ أردية التحذلق والعادات والأمانى الاجتماعية .. بعد عذاب وخوف من كل شيء ... يتقدم إنسان ل يطلب الصداقة ... صداقة الوعي بحربنا اليائسة مع القدر .

وصيحتنا الممزقة رغم كل شيء . نتحدثك .. لن نموت ..

يده تضم يدي في صداقة الند للند .. أقدامنا ترسم على الرمال خطين متوازيين متعرجين .. أنا متعبة . لم أعد أقوى على السير .. ألم حاد يمزقني . لن أموت ، حتى أرسم اللوحة ...

أوهام الحب والغيرة والجمال لم تعد تقف بيني وبين الأشياء .. حسبي انني إنسانة ، بشعة ، لكنها حقيقية ، لأنصهر بالأشياء في صدق وإخلاص . أبي قال أن لا أحد يصنع للآخرين خلودهم ، وسأصنع خلودي بنفسى ... وسأرسم لنفسى لوحتي الحقيقية وسأكون مخلصه لبشاعتها .. الموت ؟ ...

من قال إنني سأموت قبل أن أنسكب في لوحة أستمر فيها ؟ ..
من قال إنني سأموت ؟ ..

القطعة

جرس الهاتف يرن .

ملحاح وأبله هو صوته ، كذبابة بجائعة . لا ريب في ان أمها تحدث
الحجارة من النافذة كعادتها . ستجيب . تسرع . تختطف الساعاة كي يخرس
الجهاز ثم ترفعها ببلادة . تغوص في شجرها الغجري المبعثر ..

— من ؟ .. أستاذ سليم .. أهلاً .. ظننتك في بيروت .

— وصلت منذ لحظات متعباً ووجدت برقية من الأستاذ نادر يقول لي فيها
انه سيصل الليلة في الثامنة والنصف ، ورجا فيها أن ترافقيني إلى المطار . يبدو
ان إحدى نوبات العمل قد انتابته .. وليرحمنا الله !

صوته مختلط بضجيج أبواق السيارات والمارة . لا ريب في انه يحدثها
من الدكان المجاور لداره . اسم نادر سمعته جيداً . تقبض على الساعاة
بشراسة عنكبوت يتخبط في الفراغ ولا يشده إلى ركنه في السقف سوى
خبط رفيع يغوص في فكوكه ..

— لم أسمع جيداً .. ماذا قلت عن الأستاذ نادر ؟

— قلت انه سيعود بطائرة الثامنة والنصف . سأتي إليك بعد ثلاثة أرباع
الساعة لنذهب فنستقبلها معاً ..

هل قال « نستقبلها ؟ » ولكن نادر رحل وحده .. إنه ضجيج الشارع
بلا ريب ..

إنقضى الشهر وهي حائرة ، هل تذهب لاستقباله ؟ هل تكون له ،

أبداً له ؟ ... أم تظل قطنته التي تحيره ؟ أم تجربه ، بأنها يوم تحررت من أسعد أقسمت ألا تكشف أعماقها لرجل .. يجب أن تقرر بسرعة .. الآن .. نظراتها تتجه نحو غرفتها حائرة مستنجدة ، تود لو تحترق الجدار لتقع على صورة كبيرة لاسعد علقتها مقابل فراشها .. الصورة كريهة وثنّة وإطارها خشبي كالثابوت . لا . لن تكون لأحد بعد اليوم ..

— لن أذهب معك يا سليم ..

الضجيج ما زال يتدفق من الساعة ويغمر الغرفة .. لماذا لا تلقي بها وتستريح ؟

— ماذا تقولين ؟

— قلت انني لن أذهب معك لاستقباله ..

— لا أستطيع أن أسمعك .. سأمرّ عليك في الثامنة . كوني مستعدة .

اسرعي ..

— ولكن ..

تسمع صوت الساعة وهو يعيدها إلى مكانها . الضجيج في الغرفة يضمحل فجأة . ومضة فرح خبيثة تسطع في عينيها . انها مضطرة -للذهاب ، لا تريد أن تبدو قليلة الأدب أمام سليم المسؤول الثاني في الشركة بعد نادر .. تعتذر من لسعة مبهمة بدأت تؤرق كيائها كله .. ذهابي لا يعني شيئاً . أستطيع أن أرفضه فيما بعد .. ثم انني سكرتيرته وقد تكون يجعبته أعمال هامة فعلاً تستدعي وجودي السريع . سأذهب ... باب يصفق وراءها . تكتشف انها ما زالت تحمل الساعة الخرساء في يدها .. تعيدها إلى مكانها وتلتفت . لماذا تلون أمها خديها بهذا الأسلوب ؟ قمها واسع جداً .. يخيل إليها انه يزداد اتساعاً يوماً بعد يوم . أبداً تسألها :

— لماذا تعلقين صورة أسعد في غرفتك ما دمت قد أصررت على فسخ خطبتكما وانتهى كل شيء منذ أكثر من عام ؟ هل أنت مجنونة ؟

كيف تركت أسعد الثري بسبب هفوة تُغتفر لأي رجل ؟ على الأخص إذا كان هذا الرجل ثرياً ..
تمخاطب أمها :

— إتصل بي سليم وقال إن الأستاذ نادر سيعود الليلة أنا ذاهبة مع سائر موظفي الشركة لاستقباله .

إنها تكذب . يؤسفها أن تضطر للكذب كلما خاطبت أمها . تريد أن تتحاشى أية مناقشة معها . ترى جيداً أنها تفتح فمها وتغلقه كأنها تتحدث ، رسوم الستائر وراءها غريبة الألوان . أساورها الذهبية تلمع بابتدال ، تذكرها بأشياء قدرة . بأسعد . بالثمن الذي اختبأ وراءه ليشتري كبرياءها . كلهم يدفع من محفظته وتزلفه .. لا أحد يمنح من نفسه . تنسحب إل غرفتها . تغلق الباب . الغرفة مظلمة . هدوء لزج بليد يزحف كأفعى ويلف الظلمة بغلالة من وحشة وذعر . الشتاء غراب أسود مكوم تحت أقدامها ينقرها . حزمة من نور الشارع تنسكب من النافذة المفتوحة فوق باب شرفتها المخلق ، وتراقص بشراسة شيطانية على صورة أسعد . لقد تعودت أن تدمع بها هذه البقعة من الجدار بالذات كيلا ترى سواها عندما تستلقي في فراشها .. لتظل أبداً أمامها كذكراه : كبيرة وكثيبة .. باهتة كشبح ، لكنها موجودة .. كحقيقة ممزقة مرعبة ترفض تصديقها .. شفتاه في نصف انفتحة .. في نشوة وذعر .. تماماً كيوم فاجأته بزيارتها في داره .. صرامته .. لامبالاته .. كبرياؤه .. ماذا حدث ؟ القيم كلها تتطاير مع فقاعات صابون حمام معطر .. لماذا أعطاه مفتاح داره إذا كان يعرف أنه سيخونها ؟ لماذا لم يستعده أثناء مرضها ما دامت حسناء سواها ستعيب بتحفه ورياشه ؟ ليتني لم أمرض .. بل ليتني لم أشف أبداً .. جاءت لتفاجئته بأنها تحسنت . تحدث أوامر الطبيب . الوهم الأخاذ تمزق مع أشياء كثيرة لا تدري ما هي . رائحة عطر رخيص ظلت تعشش في حنايا منخريها منذ ذلك اليوم .. الزلزال لم يتوقف .. زلزال

في الدرج حيث انطلقت راکضة هاربة من الاله الذي يصرخ في مستنقعات
الكحل والعطر الرخيص .. زلزال في أرض الشارع حيث ظلت تركض .
لا تشعر بأن الناس كانوا يرمقونها بدهشة .. الناس ؟

أحقاً ان في الكون إنساناً سواي ؟ لماذا لا أسمع حفيف أنفاس أحد ؟
التأيل الرخامية تنفس ولا تلهث ؟ زلزال في مدينة قيم منسجمة عريضة
الألوان .. المدينة بعد الزلزال حزينة ومهدمة تنكئ أطلالها على أطلالها ..

تظل متصلة في الظلمة .. خوفها من شيء ما يشد نظراتها إلى صورة
أسعد . لماذا خائفاً ؟ منحته اشراقة أعماقها .. لماذا علمونا ألا نسجد إلا لمثل
أعلى تُنحت تماثيله في غيوبات مراقة ؟ لتبقى الصورة هنا لئلا أسجد بعد
اليوم لغير الحقيقة . سأعري بقسوتي الرجال جميعاً من زيفهم .. سأرفض
كل شيء .. ليس في الحياة تحدّ يستحق رد فعل صادق ..

تظل تخمش الصورة بنظراتها . تكرهها .. وتكره أن تنسى .. لا لن
تذهب لاستقبال نادر .. قال لها قبل رحيله :

— أيتها القطعة ، فكري طوال الشهر الذي أقضيه بعيداً .. إذا قررت أن
تكوني لي زوجة فتعالى إلى المطار لاستقبالي . وإلا فلا تجيئي ..

لن تذهب .. ستترك عملها في الشركة . ستهجره لأنها تعبده . لن
يفهم شيئاً . ستظل أبداً قطعة المدينة . لن تتعري أعماقها أمام أحد .. لن تستسلم .
الحب سلاح في يد الذين تحبهم يعطيهم القدرة على أن يجرحوها ويخذلوها ..
وهي لم تعد تريد أن تخذل ، لا أحد يستحق أن تسمح له يجرحها . يا الله !
كيف تنسل نظرات أسعد التي لا لون لها من الصورة العجيبة . فتحسسها
مفجعة الرخاوة والبرود .. كم تكرهه ! وكم تكره أولئك الذين يحملون
جوعهم في أعينهم ويلتفون حولها ! تنشر شعرها العجري مع ضحكها
وتغابها اللذيد . عالم مثير الألوان والأضواء يشدهم إليها أكثر .. يلذ لها أن
ترقب عذابهم المراهق .. عواء جوعهم وحفارة جوعهم وعري جوعهم

أمام برودها .. ملكة النحل تقتل ذكورها .. النحلة عاقلة ..

لو يعرفون .. لو يعرفون تشردها في الشوارع المظلمة . تدفن فيها هويتها .. تتأمل النوافذ واحدة واحدة . تبكي عندما تلمح ظلال نار محتضنها موقد دافئ .. تود أن تحصبها بالحصى بحرقه طفل يحطم دميتها التي طالما توصل إليها أن تنطق . فظلت تواجهه بعينين تطل منها كآبة باردة لامبالية .

الحب والكراهية يمتزجان في قلبها .. كالموت والحياة .. لماذا لا تستوي الأشياء ؟ أنها قوية .. قوية بقسوتها .. قوية بعذابها ..

قطعة ما تموء في الشارع بأسلوب إنساني بدائي .. تنفجر باكية بحرقه حقيقية عجيبة بينما هي تردد : أنا قوية قوية ..

تهوي إلى فراشها .. عالم متفجر الذرات في أعماقها .. الرعب . التحدي . الرفض . تحس ان في أعماق رفضها كذباً مكابراً . لم تستطع إلا أن تكون مزيفة عندما تتعامل مع الآخرين . تخرج وجهها في لزوجة الدمع الحار ثم تستلقي على ظهرها وتظل نظراتها مشدودة إلى صورة أسعد . أنها مشوقة لرؤية نادر . لماذا لا تغامر ؟ صورة أسعد تكبر . تغطي الجدار .. يتزلق منها شمعي الوجه طرياً كأكذوبة .. ينحني عليها بيلادة كساعة حاول استرضاءها بذهبه .. من قال أنها أحببت ذهبه ؟ .. يطل على عوالم رعبها وهو يقترب .. شفتان ميتتان تلصقان بشفتيها . اللود لزج كريحه الرائحة .. مرارة الغثيان تنفجر في جسدها .. تكرمه .. تكرههم جميعاً .. تختنق .. ذات ليلة ستموت هكذا كصبرصور في بثر الصديد .. لن يحس بها أحد . قد لا تموت ولكن جسدها في لحظة صدق وقرق من الحياة سيرفض كل شيء .. فيها سيرفض أن يشكو .. لسانها سيرفض أن يتكلم .. سيظنون أنها ميتة ، أمها تبكي وتندب والحارة الثرثرة ستجد الدليل على أنها كانت مجنونة فعلاً .. سيرمون بها في قبر مفتوح .. النجوم في السماء ستظل تغمرها بيلادة لامبالية كعيني قطرة تثرثر عند الموقد . الليل سيحنو على رفضها ..

سيشفق عليها لأنها لا تستطيع أن تبكي .. وقبل أن تندّي الريح وجهها
سيهيلون التراب عليها، كثيراً من التراب الرطب. كثيراً من التراب فوق
صدرها .. متعبة .. متعبة .. تكاد تختنق .. لماذا نسوا الصورة معها في القبر ؟ ..
أسعد يقهقه مع الغاية .. تفور قذارة فقاعات صابون حام معطر في ثنيات
القبر ..

أسعد ينثني إليها ليضجها .. لماذا يكون الموت بهذه القذارة ؟ الآن
الكراهية والسلبية تملآن نفسها ؟ تقفز فجأة عن فراشها والذعر والاشمئزاز
شحنات كريمة تومض من جسدها .. زر النور إلى اليمين .. الظلمة تجلب
هذه الرؤى .. سئمت عذاباتها .. كل شيء يتوهج ويحرق أهدابها ..
صورة أسعد ما زالت في مكانها .. المكتبة مصلوبة تحتها .. المجلات الملونة
مكدسة ، رثة الأطراف ، كأنها فريق راقصات رخيص .. المرأة فاجرة
النظرات تواجهها بصفاء مرهق .. ترى فيها عينين دامتين . كم هو
مريح أن تستعيد قدرتها على البكاء وترى شعراً غجرياً مجنون التمرد ! تهز
رأسها فيزداد انسكابه كشلال متفجر الضياء .. أنها مغربة محرقة كشمس
مدارية صاعقة .. القطعة .. للذيد ان ترى في العيون حقداً لا شفقة .. كم
كرهت شفقة الجارات بعد فقدانها أسعد .. خطيبتها !

تتحسس نعومة رقبتها وصدرها بنشوة نرجسية فخور .. كم هو
للذيد أن تكون جميلة ..

احساسها بالجمال يملأها برغبة في أن تمنح كي تعرف نشوة التلاشي..ان
تمنح يعني انها حية . الوردة اللابلة في الكأس بالقرب منها فاتنة الشحوب
وموثره .. رأسها المخني يبعث على الاحترام ... يذكرها بأشراقه التعب
التي يشع بها وجه المرأة بعد الوضع ، جميل أن يشرق الإنسان بعد أن يموت ،
النجوم كلها ، أتراها نساء عرفن نشوة العطاء والتلاشي واستحلن. أبخرة
تكاثفت في مغاور السماء وظلت أبداً مضيئة رجراجة ؟

نادر .. تحبه .. تريد أن تمنح وأن تغامر من جديد .. تريد أن تنظر إلى
النجوم .. في رعشة أشعتها وعد لرعبها بمينة مشرقة . تفتح باب شرفتها
وتخرج إليها .. غيوم الشتاء تنغذى بالنجوم وتخرج إليها بالنجوم ، لكن
النساء المضيئات بالسعادة كثيرات .. أبداً تتجدد بين النجوم .. وهي
ستنتقي مغارة فيروزية في ركن السماء قرب نافذة نادر لتظل أبداً تمنح ..

تعود إلى غرفتها وقد توردت وجنتاها . يخيل إليها ان صورة أسعد
ساخرة لا تبالي ، ترتدي ثيابها . أنفاسها تتسارع مغناجاً نشوى وهي تستعيد
بكثير من اللذة أشياءها الصغيرة . الاسطوانة النائمة في ركن دولاها والتي
أهداها إياها ذات مرة وهو يقول بلهجة ذات معنى :

— اسم هذه الاسطوانة : تعالي اليوم أو لا تجيئي أبداً .

تبسم بتخايب وهي تذكر كيف ردت عليه :

— أستطيع أن أجعله يردد ذلك كل يوم .. كلما اردت .. يكفي أن
أضع ربع ليرة في ثقب آلة الاسطوانات وأديرها .. ربع ليرة تشتري حبيباً
في مدينتنا ..

تنتهي من ارتداء ثوبها .. بعد لحظات يأتي سليم ، يجب أن تسرع ..
كم هي بشوق لرؤية نادر .. السد قد تهدم .. المياه تهدر وتكتسح كل شيء ...
أناملها وأهدابها ومسامها ونزق حركاتها تصرخ بأنها له .. آلامها وتحليها
ورفضها وماضيها تنصهر في صرخة متوحدة محمومة فيها الكثير من بدائية
صرخات الغابة .. تحبه .. ستكون له وحده .. أبداً كانت تبحث عن حضارة .
عن دفء معتق قديم .. اصرارها على البحث هو الذي دمغها بأصباغ
العيب ، ستسلم مغاورها وشطآنها وجزرها المرجانية لغيات حارة وردية
تسكبها لمسات رؤوس أصابعه وشفثيه ... انها هاربة من قبر كراهية وحقد
إلى حيث تولد نجمة ..

لماذا لم يصل سليم بعد ؟ نسيت أن تصفف شعرها .. نادر كان يكره

حصلها المغناج ، وتهتكها المثير على الجبين .. يحيلها إلى قطرة .. لا أحد يملك قطط المدينة .. وهو يكره مدنية الققط المزيفة . قال انه يبحث عن حضارة .. تتناول شريطاً أسود وتشد شعرها إلى الوراء .. لماذا تأخر سليم ؟ انها الثامنة .. لا تريد أن يجد نادر نفسه وحيداً في المطار .

كأحلى سيمفونية عرفها ليل المدينة تسمع هديل بوق سيارة سليم ، تقفز على السلم راكضة كأنما تلسع درجاته قدميها . ترتجى في السيارة إلى جانب سليم وهي تلهث فرحة . يحببها ويتأملها بينما هو يدير المحرك .. للمرة الأولى يراها بلا كحل . بلا ألوان ، بلا اثاره مفتعلة . امرأة من صلب الحقيقة وصفاء الخيال . يدهشه منظرها .. تقول له بلهفة :

— اسرع يا سليم ، لا أريد أن يجد الأستاذ نادر نفسه وحيداً في المطار ..
سليم يضحك ويقول : « انه لن يكون وحيداً .. ستكون معه عروسه الأجنبية .. لقد تزوج هناك .. ألم تسمعي بذلك ؟ »

— من قال هذا ؟ ..

— وصلتني منه رسالة قبل سفري إلى بيروت يخبرني فيها بذلك ويطلب مني كتمان النبا لأنه يريد أن يحتفظ به كمفاجأة .. لكن الخبر منتشر في المدينة في شبه اشاعة .

— لم أسمع بذلك إلا منك ..

— إذأ فأنت آخر من يعلم ..

تجمد . نادر لن يعود . أبداً لن يعود . لقد مات . ستشترى قبره باقة ورد . يريد أن يتشفى منها . يريد أن يرى وجهها وهي تفاجأ بعروسه .. كل منهم على استعداد لأن يدفع غالياً ثمن دمة في عيني القطرة يتشفى بها . دمة واحدة .. وهي لن تبكي . تحول نظراتها إلى الشارح المضئ الذي يخترقانه . الأشياء تنزلق في عينيها بسرعة . بائع أحذية . عجوز يصق . بائع ورد . تهتف بدلال :

— قف يا سليم .. أريد أن أشتري باقة ورد أقدمها لعروس المدير .
انك عديم اللياقة .

يقف . يهبط ليبتاغ لها باقة . تبقى وحدها في السيارة ينخيل إليها أنها ترى
نادر يهبط من الطائرة وفي طيات معطفه روما تحترق .. كان يبحث عن
حضارة ليدمرها .. لم تتعزّ أمامه .. كبرياؤها لم تمس .. أحقاً أنها لم تمس ؟ ..
زبد في صدرها .. التحدي .. الحياة .. الكبرياء .. الزيف . نادر غيمة لم
تمطر .. من قال أنها عطشى ؟ ريع ليرة في ثقب الآلة يشتري حبيباً .. فقاعات
صابون حمام معطر تفور في حلقها ..

في صدرها .. تريد أن تشهق .. تشكو .. لمن ؟ لا احد .. لا تستطيع ..
لا شيء سوى غيات عطف لا تمطر ..

يدها تمتد إلى الشريط الأسود وتزرعه من شعرها .. قليل من الكحل ..
قليل من الألوان .. باقة ثوبها ضيقة تزعجها . تحملها .. القطعة تولد .. ليس
في عينيها دمة ، لكن عيون القطط جميعاً ندية تلتمع في الظلمة ..

سليم يعود ومعه باقة قبيحة لكنها كثيرة الألوان ضخمة الحجم . هذا
ما طلبته . السيارة تتحرك . من جديد . القطعة تثرثر .. تضحك .. سليم ينظر
إليها وظلال حمر تعوي في عينيه ، بينما هما في طريقهما إلى المطار . القطعة
ترقبه ببرود عنكبوت تحوم ذبابة حول شباكها ..

بعد قليل تهوي الذبابة وتتخبط .. ستضحك كثيراً ..

أضواء المطار تلوح من بعيد .. لا تراها لا ترى سوى صورة أسعد
المعلقة في غرفتها ، كريمة ونبقة ، وإطارها خشبي وكثيب كالتابوت
وينخيل إليها أنها تسمعها تقهقه بسخرية همجية التمزق .. لأن ريع ليرة في
ثقب الآلة يشتري حبيباً ...

افعو جريم

ضممتها إلى صدرك أكثر يا زوجي الوفي .. ضمتها إليك ، فالموسيقى
حارة مغرية وجسدها ناعم الملمس كأفمى الجحيم . وأنا هنا في الركن المعتم
زوجتك الباردة التي اعتدت عيونها البلهاء ... واعتاد أصدقاؤك صمتها
وسكيتها ... وجلستها الذليلة كقط الموائد .

راقصها بحرارة كما كنت تراقصني أيام خطبتنا منذ خمسة أعوام ...
واهمس في أذنيها بعباراتك السخية التي اعتدت تكرارها - دون أن تعي
ما تقول - كلما ضمت إلى صدرك غريمة جديدة تعذبني بها ... قل لها
« أحب عبر شعرك الأسود ... وأحب عينيك الكستنائيين » عفواً .. بل
قل شعرك الأشقر وعينيك العسلتين .. لا تخطيء (بحكم العادة) وانس
أن عشيقتك التي سبقتها كانت سمراء .. يا للضحيج .. يا للموسيقى الصاخبة ..
يا لعذابي المريع .. الجميع يرقصون ويقنزون .. وأنا أيضاً كنت أرقص
منذ أعوام في حيتنا الفقير .. ويوم عينت مدرسة للأطفال تجمع الأهل
والأصحاب في فسحة دارنا فرحين مهئين .. وانفلت أنا بين الجمع أرقص
بعفوية وصدق .. وأتلوى ببراعة ولذة فطرية .. كنت أحس أن الموسيقى
تتسلل إلى جسدي وتحركه .. وانني أعبر به عن رغباتي الخرساء .. وما
كان أكثرها ، رغباتي اللدنية بسبب خجلي .. لم أجروؤ قط على النظر في
عيني شاب حتى حسان .. لم أقل انني أحبه إلا بعد زواجنا ..

يا للقصر المزخرف المزيف كالتابوت المنقوش .. ما الذي رمى بي في
هذا المكان المريع ، بين هؤلاء الذين يقفزون ويتصايحون بوحشية في عيد

ميلادي ؟ وهذا الرجل .. زوجي .. لماذا يضم إليه هذه التافهة الملوثة ..
ويدفن رأسه في شعرها الأشقر .. أشعر بأن الضجيج يمتصني . أضيع فيه
وأتلأثي . لم أعد أستطيع السكوت ... انني أصرخ بأعلى صوتي : « أوقفوا
هذه الجلبة والفوضى أيها الحمقى .. أخرجوا .. خذوا معكم رجلي المزيف
ودميته الجديدة .. انني أكرهكم .. أكرهكم .. لست منكم وليس باستطاعتي
أن أكون .. أنا بلهاء فقيرة أريد أن أعود لطلابي الصغار » . انني أصرخ
وأصرخ وأكرر .. ولكن أحداً لم يلتفت إليّ . لم يسمعني أحد . فأنا خرساء
خرساء كالصخر .. كاللصمة .. حباتي الصوتية تالفة مهترقة .. كالأعشاب
البحرية .. كالهوام .. وأنا فقدت قدرتي على التعبير بالوسائل المعروفة ..
ولكنني - للأسف - لم أفقد بعد القدرة على الألم . إن لي من الآلة صمتها ..
ولكنني لم أكتسب بعد قسوتها وجبروتها ...

ضممتها إلى صدرك أكثر يا سيدي .. فزوجتك اليوم صامته كالقبر ..
لن تضايقك ، حتى ولا بمجرد العتاب .. ليس بمقدورها أن تسألك بعد
اليوم لماذا صممت على النوم في غرفة منفصلة عنها بعد الزواج بأسابيع ، ولن
تسألك بحرقه كيوم نختها للمرة الأولى : « لماذا تفعل ذلك يا حبيبي ..
لماذا ؟ » ..

وتلك الفاتنة التي اخترتها اليوم لتكون جلادي .. لتراقصها أمامي
وتلتصق بها بحرارة مشبوبة ، ليست أجمل مني .. ولكنني بلهاء سيئة
التصرف .. وهي تعرف كيف تشقى بجسدها اللدن وكيف تهمس بشفاه مثير ..
وتعرف كيف ومتى تعطي .. وتعرف كيف تنتزعك مني لحين .. ريثما
تنتزعك منها أخرى .. وأنا هنا .. العن البلهاء التي لا ترى ولا تسمع ..
وحيدة كاللوت .. متعبة كالأنثى .. وأعود أصرخ من جديد : « أنا هنا
أيها اللاهون .. ألا تسمعون نحيبي الأخرس وصراخي المكتوم .. أنا هنا
في الركن المظلم أحس بكم .. وأراكم .. وأتألم بوحشية وجنون .. أنا هنا

ألا تسمعون .. أنا أنثى . ألا تشعرون ؟ ... لم يسمعي أحد فأنا خرساء ..
ولكنني لم أفقد أنوثتي وغيروني .. لم أفقد هذا كله يوم أصبت بمرض الحبسة
منذ عام .. فاسترخت حيالي الصوتية وتقلصت .. وأضحيت كثيفة صامتة
كاللثة .. كالحائط .. كأرض الغرفة التي يضربها زوجي الآن برجليه ..

ضمها إلى صدرك أيها الزوج القاسي ... تحسسن كتفيها المثيرتين ..
أنها ليستا أشد نعومة وامتلاء من كتفي .. ولكنها تعرف كيف تبرز جمالها ..
أما أنا المحتضى بعيد ميلادها .. فما زلت هنا في الركن البارد .. ملتفة بشالي
الأبيض كالكفن .. شالي الأبيض ، أتذكره ؟؟ هدية خطبتنا .. يوم حلفت
لي على الوفاء .. وقلت لي إنك تحب عبر شعري الأسود .. وصمت أنا
يومئذ مع أنني لم أكن خرساء . كان الصمت المقدس من عاداتي والخبيل
دائي المستحكم .. حتى عندما كنت توصل أختك الصغيرة إلى مدرستنا
بسيارتك الفخمة لم أكن أجروء على التأمل في وجهك ، بالرغم من إعجابي
الشديد بك ، وقد أحبيتك دائماً .. بهدوني الظاهري وأنوثتي المشوبة
الخفية .. لم أقل شيئاً .. لم أرفع نظراتي قط إلى وجهك .. على الرغم من
اهتمامك بي ومحاولاتك المكشوفة لإغرائني .. كنت أتمنى أن أضمك إلى
صدري وألهب وجهك بأنفاسي .. ولكنني لم أفعل .. كنت خجولاً
وجباناً .. وكنت قد اعتدت الحصول على كل امرأة تعترض طريقك ..
فلما وجدت أنني الوحيدة التي لم تنجح فيها أساليبك التقليدية .. ظننت أنك
أحببتي ، مع أن احساسك لم يكن سوى رغبة ملتهبة في الحصول عليّ كما
أدركت بعد فوات الأوان - وتمت خطبتنا .. وسأني أهل الحي سندريلا .
وتم زواجنا الفاشل وتركت عملي .. وانضمت إلى زمرة العاطلين بالوراثة ..

ما زالت الموسيقى تعزف بجماعة ، فضمتها إلى قامتك الفارعة يا سيدي
وغيبها في صدرك العريض . بالرغم من النيران التي تأكل عيوني ، لا
أستطيع إلا أن أرى أنك مدهش .. أنيق .. جذاب ووسيم .. رائع المظهر

كقبر رخامي براق . يتلألأ تحت أشعة الشمس بينما تزحف في أعماقه المتعفنة
ديدان نهمه وحشرات مشوهة مرعبة تنهش كل جسد تحويه . ديدانك
يا سيدي نهشت من نفسي طيلة خمسة أعوام .. من شبابي وبراءتي ..
من أحلامي التي دفنتها في قلبك النتن .. ديدانك يا سيدي أتت على البقية
الباقية من صوتي وظلت تنخر في حنجرتي بشكل مرض أسماه الأطباء
(الحبسة) .. حتى سكت .. إلى الأبد .. ومع ذلك ظلت حية صامته
كتمثال معذب هنا في الركن المعتم ..

خرساء أو لا خرساء .. لم يتغير الحال يوماً منذ زواجنا .. الدمى التي
كنت تلهم بتبديلها ، لم تكن أنت نفسك تهتم بحديثها .. كنت دائماً أفضه
من أن تحب . أضال من أن تشعر . وأحقر من أن تفهم ... كنت تجهل دائماً
أن الحب يتطلب مقدرة معينة على الاحساس وعمقاً وإدراكاً .. وأنت لم تحب
قط ولن تحب أبداً .. وأنا قد أدركت هذا كله وأخليت الميدان .. وهالذي
اليوم أتوقف عن حبك .. لماذا ؟ .. لماذا أرتعش وأخشى هذه الكلمة ؟ ..
لماذا يدمي قلب المرأة أن تعترف بفشل حبها ؟ .. لماذا يأكل هذا الفشل من
كرامتها وأنوثتها ؟ .. أنا خاسرة .. خاسرة . خاسرة : وحيدة . أصرخ
ضائعة ولا أحد يسمعي . أتحدث بصوت مرتفع يموت قبل أن يترنح على
شفتي . فأنا خرساء ولكنني ما زلت امرأة .

وتلك التي التقطتها من أسواق الغرور .. تلك التي تحمل بركة المايونيز
والكافيار ليست امرأة .. ولكنها خرساء ... لم يخطر لها أن تستعمل لسانها
قط إلا في تذوق الكافيار - والمايونيز ... وفي ضرب المواعيد على الهاتف ..
وفي إلقاء تحية الصباح على أمها حينما تستيقظ في الثانية عشرة ظهراً وتقول :
« هاي مام » وحين تخرج بعد العاشرة مساءً « لأعمالها » وتقول : « باي
مام » .. وحين تقول لسائق سيارتها إذا قبلها أو إذا أسرع في طريقه « مستوب
جونني » .. وعدا ذلك . فهي خرساء .. أما أنا فقد كافحت طويلاً منذ

مراهمتي لأساعد أبي .. وظلما رددت جنابات مدرسة الأطفال صياحي
وهتافي . وتوجيهاتي ودروسي وضحكاتي ... والأغنيات البريئة التي
كنت أعلمهم إياها .. لا .. لست أنا الخرساء .. إن صوتي حي في حناجر
عشرات الأطفال الذين يرددون أغنياتي .. ويتسامرون بحكاياتي .. صوتي
حي في قلوبهم ... حيث غرسته منذ أعوام وتركته هناك لتزيده الأيام
صلابة وخلوداً .. صوتي حي في نفوسهم حيث وهبته لهم أغنية صافية
تنبض صحة ، ونشيداً مشرقاً مطرزاً بالشباب والضياء ..

ويوم تزوجتك يا سيدي تركت عملي .. حملت معي حنجرتي الممزقة
المستفدة وقلت هذي واحتي .. ويا لواحة الجحيم ! يا لسوقكم الرهيبة ..
سوق العبيد ! لم يخطر لي انني كنت رخيصة لديك .. فأنا بلهاء وفقيرة يا
سيدي .. ولكنني امرأة .. وأنا قد انتهيت ولكنني لن أمضي بالبساطة التي
تتصورها ..

ضم شقراءك إلى صدرك فقد بدأت تتعب ... ضمها إليك بعنف وقوة ...
عذيني .. اسحقني .. فقد بدأت أجد لذة في عذابي ما دام يحرقني من بقايا
حبك .. لقد كشفت لك عن صدري فاضرب بقسوة .. فما زال في القلب
دفقة دم وورشة .. وما زال في الأعماق طيف حنين .. وما زالت طاقتي على
التحسس بالعذاب هائلة .. وأنا الآن حائرة .. ضائعة .. ولكنها تضحك
بين ذراعيك لا أسمع إلا ضحكاتها وأنت تلداع رقبته بوجهك وتدغدغ
جسدها بين يديك بعث ونهم .. رفاقك يحرقون إليّ بشيء من الرعب
اللذيد وبكثير من الإثارة . انهم يطالبونني بمشهد هائل .. يودون التلذذ
برؤية عذابي .. يريدون قصة تلوكتها ألسنتهم .. (ينتظرون مني أن أنهض
وأقرب منك وأحاول انتزاعك منها ، حيث ترفع يدك القاسية وتصفعني ..
وتعود إلى رقصك بكل برود بينما أنا على الأرض كتلة من اللحم المنهوش
تدوسها الأقدام) ..

لديك هو ذلك الحقد الأسود الذي يتسلل إلى أعماقي .. ورهيبه هي تلك
الأفعى التي تستيقظ في نفسي .. تنفث سمها في أنوثتي وكبريائي .. وشرسة
هي تلك النمرة التي تتشاب في قلبي وأظافرها الحادة تتخبط في الفراغ ..
بحثاً عن فريسة .. اني امرأة غيرة .. مزيج من أفعى ونمرة .

ضممتها إلى صدرك أكثر .. احمها مني فإن نخلها يغريني بالصفع ...
الخد الذي تتحسسه بشفتيك الآن .. وتغمره بقبلك السريعة اللاهثة .. أهون
عليّ أن تتزع أظافري ، أن أنتزعها أنا بأسناني .. أن أنهش ذراعي وأغرس
المسامير في عيوني من أن تهان كرامتي وأنوثتي هكذا .. أمام الجمع الشامت ..
أمامك أنت ..

ضممتها إلى صدرك ، فقد بدأت أجد لذة وحشية مؤلمة وأنا أرقبك وأنت
تخطيء .. انني أمسك بمقعدي بشدة كي لا أنهض وأبصق في وجهك ..
باشمئزاز مدمر .. انني أمقتك . هكذا .. فجأة .. أشعر انني أمقتك ..
مزق الحنايا التي نبضت ذات يوم بحبك .. لطح كل ما في نفسي بالدم
والعويل حتى لا يبقى شيء يهتف باسمك .. أها الوحش .. أغرس أنيابك
في صدري .. وأنا فقيرة .. بلا صديق .. وأنا خرساء .. لا أستطيع أن
أصرخ .. لن يسمع أحد عذابي اللاهث .. لن يتلذذ بدماري لإنسان ..
ضممتها إلى صدرك وأغرس مديتك في قلبي حتى آخرها .. لا .. لا تلحوا
الموسيقى تخفت ، فقد اعتادت أذناي العويل .. وألفنا اللحن الحنازري الكسيع
الذي على أنغامه ترقصون ... إن الأفعى في أعماقي بدأت تتلوى وتمتد جسدها
في جسدي .. اضحكوا .. انظروا إليّ .. لم أعد أحس بشيء .. انها تنثر
شعرها الأشقر على كتفيك .. وها هي ذي يدك قد تسللت إلى الحصر النحيل
لتطوقه .. وشفتك تأكلان من الأذن الصغيرة وتهسان ببعض الكلام ..
وأنا أعرف ماذا تهمس بأذنها .. انك تقول لها : تعالي يا حبيبتي إلى الشرفة
فالقمر بديع كوجهك المشرق ، تماماً كما قلت لي يوم زفافنا .. لم يخطيء

ظني فقد خرجت إلى الشرفة .. لا ريب بأنك الآن تقبلها .. شفتاها تتململان
وتتاوهان بين شفتيك .. وأنا هنا زوجتك البلهاء .. ما زلت في الركن
المعتم ، وشالك الأبيض كالكفن على كتفي وعنقي .. أود أن أصرخ ..
أن أشكو . أن أقول شيئاً .. لا أحد يحس بوجودي .. وكلماتي الملتهبة
تنطفئ في حلقي الدامي .. حتى صراخي ، مبجوح أخرس ، خيف ،
كحشربة وحش ذبيح .. كأنين إنسان مشوه محترق .. الموسيقى تعول لحن
(التابو) .. والعيون ترمقني .. أشعر إنني سأنفجر وأتطاير في الجو هباء
ورماداً إذا لم أفعل شيئاً .. إذا لم أعبر عن عذابي .. إذا ظل البركان مخنوقاً
في صدري واللسان حبيس الضياع .. تتململ الأفعى في أعماقي وترفع رأسها
بعنف .. فجأة .. أنهض عن مقعدي وآلاف الصرخات البدائية تعول في
دمي .. وأنا خرساء ولكنني الآن امرأة ، مدمرة .. طاقة عجيبة تتبعثر في
كل جزء من جسدي .. انني أسمع صدى لطبول وثنية في معبد ضائع في
البراري .. صدى بعيداً يعلو ويعلو بعدما تنعكس الأصوات على المنابر
الحجرية المصبوغة بالدم .. دم شبان أقوياء . أحس أن رائحة البخور تعربد
في صدري .. وان الأفعى بدأت تتلوى .. وإيقاع الطبول يسرع ويسرع ..
صوت ناي بعيد يتسلل إلى ذراعي وصدري ويلف جسدي المرتعش كله ..
ولكنني ما زلت واقفة .. جامدة .. وقد بدأت الأفعى تثور وتتمرد .. ان
بدأ تتسلل لترمي بالشال إلى الأرض وان قدماً ترتفع وتدوسه قبل أن تخطو
إلى الأمام ببطء لذيذ . شالي .. هدية الخطبة .. كفتي .. تحت أقدامي ..
لا .. يجب أن أجلس .. انني بلهاء وخرساء .. وتصرخ الأفعى في داخلي .
ولكنك امرأة جريح .. انني أخطو إلى الأمام وأحس أن لحن الناي الذي
يتأوه ويتلوى قد تسرب إلى جسدي وأن الأفعى بدأت ترقص بحبور
غريب ..

وفجأة .. يلمع في عيني بريق شيطاني عجيب .. تمتد يدي بسرعة
لتفك قيود شلالات من الشعر الأسود تنهمر بعنف على كتفي العارية

وتتناثر بفوضى غريبة .. تمتد يدي مرة أخرى لتخلع الحذاء وترميه ..
يخيل إليّ أنه يصيب وجه زوجي . أتلدذ بهذا الشعور .. الكل يحدق إليّ
بذهول وخوف .. الموسيقى لا زالت تعزف .. أشعر أنني جميلة . جميلة
بثورتي وتمردتي وجميلة بالشعاع الشيطاني المخيف في عيني .. بدأ جسدي
يتلوى ويتأيل .. والأفعى تطرب وترنح . كل جزء في جسدي ينطق
بقصاحة خارقة مثيرة .. أحس أنني لم أعد خرساء .. وأن عيون الرجال
تلتهمني بنهم .. وأن عيون النساء حاقدة .. مدهوشة .. كيف تحرك التمثال ؟

كيف نطق الألم ؟؟ .. إنني أنضح عذابي حبات من العرق أحسها
تسيل على جبينني .. الأفعى تتأوه بداخلي وأنا أرقص بوحشية بدائية .. بحركة ..
بلوعة .. بعنف مذهل مدمر .. بفجور متمرّد .. صندري المرتعش يعلو
ويهبط .. ثوبي يكشف ساقي كلما درت ودت محدثة أياهم عن الدوامة
التي تسحقني .. انني أنطق بأصابعي وبشعري المتطاير .. أنطق
بجسدي الذي يتأيل ويتوجع .. الأفعى نشوى .. والفراغ حولي يضج
ويهلل .. نظرات الجميع المحمومة تتحسس جسدي بوله وجوع .. وفجأة
تتعلق نظراتي بك يا سيدي .. أراك تحدق إليّ برغبة جامحة مريبة .. كالكلب
المسحور .. ولكنتي لن أبالي بك .. أظل أرقص . أفرغ عذابي رقصاً ..
أفرغ حقدتي رقصاً .. أصرخ وأشكو ، أتأوه وأنتحب رقصاً .. لقد
استرحت .. نامت الأفعى بسلام .. واستيقظت النمرة .. خرست الموسيقى ..
وانتهت رقصتي .

يلتف الجميع حولك يهتفونك بزوجتك الحسنة التي استعادت مرحها ..
أعرف أنك تتعجل انصرافهم .. وتفكر في الوليمة التي لم تخطر لك ببال .
بالمرأة الحديدية التي تقمصت زوجتك الفقيرة الخرساء .. بالجسد الذي
ستنشه الليلة لترميه في الصباح .. أبتم لك بسخرية مومياء .. تتحرك النمرة
في أعماقي ثائرة وتكشف عن أظافرها .. الجميع ينصرفون .. أصدع إلى

غرفتي تبغني كالثور الهائج .. كم هو لذيذ أن أرى الجوع المحموم في عينيك .. الألم المراهق في وجهك ، ولكن زوجتك الحرساء الذليلة ستنام منذ اليوم فصاعداً وحدها .. راضية .. متشفية .. ماذا ؟ .. أتقرب ؟ لا يا سيدي ، لن تنهش بعد اليوم .. سوف يأتي الكثيرون .. وسيظل باب مخدعي موصداً .. وسأظل خرساء .. غامضة .. كأبي الهول .. لن أنطق إلا حيناً أرقص لأثير عواء الذئاب .. ولأدمرك يا زوجي الطفل الذي اعتاد أن يحصل على كل دمية يشتهيها .. واعتاد تحطيم الدمى ..

أخرج من غرفتي يا سيدي ، فقد بدأت النمرة تشرع أنيابها وبدأت يدي تدفلك من دربي .. ما أحلى الدهول والحيرة والعذاب في عينيك . ما ألد رائحة الحريق من صدرك ! . أجل .. أنا زوجتك الحرساء الجميلة .. أطردك من مخدعي وأوصد بابي ..

ها أنذا الآن وحدي .. انني أغمض عيني لأنام . أحس أن في حديقة القصر أفعى أحاط بها خطر مبهم من كل جانب .. إنها تغرس نابها السام في بطنها ، إنها تفرغ في نفسها كل ما لديها من ذيفان مهلك .. إنها تجمع بعضها وتنطوي على نفسها .. تنام ..

وأجمع ما بقي من نفسي .. وأنطوي على حقدتي وسمتي .. أحاول أن أنام .. لا أستطيع .. أحاول أن أصلي .. ولكني .. خرساء ..

مغارة النصور

الظلمة تتخبط في الدروب الوعرة . الصخور ترتمي في طريقي الواحدة
تلو الأخرى . الأشجار تعدو نحو الورا . والأشواك تزحف تحت أقدامي ..
السفح ينسل صوب تل القلعة المهترئة ، حيث خلفت الضابط الأعرج ثملاً ،
ومثني صندوق رهيب في القبو ، وعشرات الخنازير والذئاب ..

ما زلت أعدو مجنونة السرعة ، الرياح القارسة تضرب وجهي ، المطر
المتدفق يغسل القمة الشائخة التي تقرب مني وأنا أشق ذرات العتمة بصدري
المرتعد ، حيث أخفيت قطعة غضروفية يتدلى من أحد طرفيها قرط ذهبي
بشكل هلال أعرفه جيداً .. وكلما تعثرت مددت يدي لأتمسك القطعة
الغضروفية بجنان ذبيح .. بحقد مجنون مدمر .. نظراتي نار تحرق الظلام ..
تتحرق الصخور وتدور في المنعطفات .. تتخطى وعورة الجبل وتلتقي
بالقمة الزاحفة نحوي .. وتنتهي عند باب مغارة ضائعة بين أعشاش النور
في ذرى الأوراس حيث تتمسح بزوجي حنفي ، تنبته بأنني ههنا ، أصارع
العاصفة لأصل إليه وإلى اخواني ، والتماع البرق يحرق أهدابي .. تنبته بأنني
غادرت سيدي الضابط الأعرج إلى الأبد ، فقد أحسوا بي هذه المرة ،
وأدركوا ان « بسمة » خادمتهم الجزائرية الصامته التي انتزعوها من زوجها
في القرية المجاورة ، بسمة تتجسس عليهم وتظاهر بالصمت .. بسمة تنقل
ما يتدفق من فم الضابط الأعرج الثمل ..

— زجاجة أخرى يا بسمة .. أريد أن أحتفل بوصول المثني صندوق ..
— أمرك يا سيدي ..

أمرك يا سيدي وأطير في الدرب اللاهث ، لأنبثهم ان ثمة مثتي صندوق
من المتفجرات ترقد في أقبية قلعة الضابط الاعرج .. مثتا صندوق لآبادة
القرى الثائرة حول قلعته المهترئة .. مثتا صندوق تزرع الحديد في أحشاء
الاطفال .. تبصق الدخان في رثات النساء ، وتحصد الليادر .. مثتا صندوق
احتفل بوصولها منذ ساعات .

— يا بسمه زجاجة خمر أخرى .. ألا ترين اني عطش ؟
— أمرك يا سيدي ..

أمرك يا سيدي والحق قد يتلوى في أضلعي ويكاد ينهمر .. أمرك يا سيدي
والثورة تتفخض في أغوارى مجنونة التفجر ، كلما وقعت عيني على علبة دامية
إلى جانبك ، انسكب من احد أطرافها خيط رفيع من الدم واختلطت فيها
قطع غضروفية ، وينفرس في مقلي وهج قرط ذهبي يتدلى من احداها ...
— أسرع يا حمقاء بزجاجة أخرى .. ألا تسمعين ؟ ..
— أمرك يا سيدي ..

وألعب دوري بمهارة ، والأعرج راض عن خادمتي بسمه .. انها
أفضل من النساء العشر اللواتي اشتراهن بعشر بقرات مسروقة ، بينما يرقد
رجلهن في أقبية القلعة بين السقف اللاهث والديبدان النهمة ..
أمرك يا سيدي الثمل !

وأكاد انقضض عليك .. انتزع أذنيك بأسناني .. أمزق وجهك بأظفاري ..
أطبق على رقبتك اللزجة الطرية كضفدع مستنقع دبق .. وأظل أضغط بقسوة ،
بحرقة ملتاعة ، وأنفاسك المخمورة تضرب وجهي كالنسيم الذي يهب عن
جيف كلاب مهترئة .. الزبد يتدفق من فمك ، يغطي وجهك .. وأنا
أضغط .. ذعر رجل بلا رجولة وتوسل جبان بلا كرامة يتعانقان في عينيك ..
يفيضان منها ويضيئان في الزبد الراخي على فمك اللاهث كفوحة منخر

ثور مجهد .. وأظل أضغط .. ويوقظني من أمنياتي شخيرك الثمل ، وصوت
تحطم القدح الذي سقط من يدك المخمورة على الأرض ..
اقرب من الصندوق .. أتناول منه قطعة غضروفية تدلى منها قرط
ذهبي على شكل هلال .. أدسها في صدري .. واللوعة المدمرة تنضح من
مسامي ..

وأتركه يحلم بأطلال المدن وأنقاض القرى العزلاء وأطوار الخيام ..
والرعب الحزين يتأوه أخرس من الأقيية المتعفة .. والطيب يفوح من
جثث انخوتي .. مثا صندوق في القبو . يجب أن أصل .. الرعد يبتلع
لهثاتي المجنونة ، والمطر يعانق رماد الطيب في المنحدر .. وأنا أعدو بركانية
التدفق .. لا أسمع سوى هدير الدم تحت الرمال . لا أشعر بنيران الرشاشات
التي وجهها الأندال إلى الجبل الذي أتسلق .. إلى حيث هربت من قلعة
الدمار .. لا أدري إن كان أحد يطارطني أم لا .. لا أسمع صوت الرصاص
ينهمر حولي .. لا شيء يهمني .. لا أرى سوى مغارة النور تتمطى في
حضن الجبل .. مغارة النور تناديني .. تسألني عن أخبار القلعة .. عن
المعدات والصناديق التي تصل إليها من كل حدب . عن الشبان الذين جاءوا
يحاربون دون أن يفهموا معنى الحرب .. وأنا ما زلت أعدو مجنونة الاندفاع .
صوت حاد يحترق أذني .. نار مبهمة قد اشتعلت في كتفي اليمنى ..
ذرات الحريق تنسل في عروقي .. والنار .. ولم أخش النار وأنا كتلة جمر
ملتهب تندفع نحو القمة ..

سائل بارد يختلط بالمطر ويفسل صدري وذراعي .. لأنني متعبة ..
أفاعي الألم تتلوى في كتفي وتشنك مع شعري في صفائر من عذاب ..
يجب أن أركض .. أن أظل أركض . الألم المرهق يدق طبوله في رأسي
فيسكرني دويه وأكاد أهوى . جرحي غزير التدفق .. الجدول يثن بجانبني ،
والصخور بدأت تبطيء في ارتعائها .. السفح ينسل بتكاسل نحو السهل ،

والقمة تتحرك بهدوء ممزق نحوي .. ماذا حدث ؟ ..
ما زالت مغارة النسور بعيدة ، تخرج من فوهتها أبخرة ضبابية الحمرة ،
ورائحة بخور وطيب ، وألحان نائفة الحزن محنوقة اللهاث ..
ما زالت مغارة النسور تلوح بعيدة في الدرى ، لكنها تضيء ! .. وأنا
أتسلق النور .. أتلوى مع خيوط النور .. أزحف بين أسلاكه .. أرتعش
مع تموجاته .. وأود لو أذوب .. أفنى في سفوح الأوراس .. في ذرى مغاور
النسور .. والدفع الكاوي يلهمي كنفى .. وأنا كتلة من حقد وعذاب
متفجر .. أدب في الدرب المظلم ..

— « أمرك يا سيدي » ...

ثلاثة أعوام وأنا أقول للبعوضة العرجاء : أمرك يا سيدي ! ثلاثة أعوام
وأنا أحمل له زجاجات الخمر ليشرّب نخب حبتان الأطلسي ! .. ثلاثة
أعوام وأنا أشهد قراصنة فرنسيين يقبضون ثمن صناديق معبأة بالقطع
الغضروفية .. بأذان اخوة وبنات لي ..

وأمدّ يدي الدامية لأتحسس الأذن المدفونة في صدري وأرى الريح
يرقص في عيني ابتتي .. وأراها تلعب في أحد أزقة القرية اللاهثة بالحريق ..
وأراها مرمية قرب دميته المحطمة . مغروسة في الأرض بحرية مدبية ..
رجل أزرق البياض ينحني بسكينه على الرأس المعول .. ينهض عنه بعد
ثوان وفي قبضة يده أذنان داميته الدفء ، يتألق فيها قرطان ذهبيان بشكل
هلال زينت بهما الأذنان الحبيبتان ذات ليلة . ثم يضعهما باهمال في أحد جيوبه ،
يتلمظ بمقارة وهو يتخيل العقد الماسي الذي سيهديه لغانية تدب في ظلال
السين التنتة .. ثم يقطب حاجبيه باحثاً عن مثة جزائري أعزل .. مثة طفل
أو امرأة .. عن مثة أذن تدفع له مدينته ثمنها .. لينزين صدر غانية السين
باللآلئ ..

(زجاجة خمر أخرى يا بسمه .. أريد أن أحتفل الليلة ..

— أمرك يا سيدي ..)

ستدفع غالباً ثمن كلمة سيدي ١ ساعة تزلزل القلعة وتثور المتفجرات ..
ويتناثر رأسك الأجوف في فضاء الليل ثم يستقر فوق كوم من الآذان
المقطعة ... ثلاثة أعوام وأنا أرسم الدل الصامت على وجهي ، كي أنبئ
أخواني بأفكار جهنمية الحقارة ... حتى الليلة .. حينما التمع القرط الذهبي
في زاوية العلبة الدامية . كادت الدمعة تطفر من عيني .. لكنني جمعتها
فجأة .. أنا لا أبكي .. قد أمزق .. قد أعذب بالكهرباء كما فعلوا بأخي في
زاوية القبو الطحلبية .. وقد اشوى في القرن حية كالفتى الذي رفض أن
يتحدث عن مغارة النسور .. لكنني لا أبكي .. ماذا لو ماتت ابنتي ؟ ..
كل يوم تموت ابنة لي في السفوح . لا أحد يموت هنا .. لا أحد يبكي ..
كلنا نحضر قبوراً للقراصنة ..

بحار رمالنا شمت القراصنة .. بحار رمالنا تملطى .. الدم يهدر تحت
ذراتها ، النور يتأوه في الصخر ويود لو يتفجر .. الشمس تسكع متفجعة
وتود لو تحرق .. الزلزال يتلوى هائجاً ويود لو يدمر .. المعاول ارتفعت
في السواعد ، وعما قريب تهبط في أحشاء متعفنة بالخمير والخنزير .. القلاع
المهترئة ستهوي ، والأقبية المتعفنة ستغور .. وأنا ما زلت أنسل بين أضواء
مغارة النسور .. أعدو نحو مغارة النسور .. منارتي التي تغمز لحقدي في
الظلام ببراءة متمردة ... تهمس مع التسميم فيجبيء النداء خائر القوى ..
ويجعل مسام جسدي تتلذذ بالسائل البارد الذي يرسم ورائي على الرمال
النشوى خطأ أحمر من لبيب .. الريح تعوي وتعانق اللهب المتأجج .. وأنا
أحمل جرحي وأزحف به فوق الصخور التي تمزق وجهي .. فوق الأشواك
التي تنغرس فيه فتلمبه .. وأظل أزحف والمطر المتدفق يعانق الرمال .. وأنا
أتمتر .. أنزلق .. أتأوه .. لا أشعر بشيء .. لا أرى شيئاً سوى مغارة النسور
تغمز من بعيد .. وحفني هناك بقامته الفارعة ، وبحار النيل في عينيه ،

وتيارات رجولة خفية تتمسح بجسده .. حنفي بين اخوانه في المغارة ..
ممسحون بندقية وجرحاً ، ويتسللون أشباح رعب تصعق الغرباء قبل أن
تلمسهم .. كم أنا بشوق لرؤية حنفي .

الأفكار تدور وتختلط في رأسي كشعر الجنيات المتطاير . أمرك يا
سيدي .. ثلاثة أعوام وأنا أقول للأعرج الثمل سيدي ، كي أتسلل في جنح
الدجى إلى سفوح مغارة النسور حيث ألقى حنفي واخوانه .. أزودهم بما
سمعت .. باسم القرية التي ستكون ضحية (رحلتهم التأديبية) .. القرية
التي سيدخلها جنود يرتعدون وراء النار والحديد كما دخلوا قريتنا منذ ثلاثة
أعوام .. يقتلون ويقتلون .. ونظل نحن ندفن ضحايانا في أعيننا .. نرفعهم
نجوماً فوق جباهنا .. نخزنهم دفقة حياة في أعماقنا .. نحمل حقدهم في قلوبنا ..
انني أترنح ، الأشجار تقفز في طريقي وتصطدم بوجهي ، الصخور
تزحف فوق جبينني ، والحصى تتبعثر في جفوني .. السائل البارد ما زال
يفسلي ، وأنا لا أرى شيئاً سوى النور في مغارة النسور ..

النور يحرق أهدابي .. ويدي تمتد إلى صدري لتحسس بحنان وحقده
مدمرين قطعة غضروفية كانت أذنًا لابنتي يوم كان لي ابنة ١١ ..
مثنا صندوق ! ألقت ورائي وتلوح القرية من بعيد وحشاً خرافياً
يبصق النار والشووم ..

لم أعد أستطيع الحركة .. آلامي حبال فولاذية تشدني إلى الأرض ..
إلى الأرض .. ومغارة النسور تناديني .. يجب أن يعلم حنفي والآخرون ..
ان اصعباً من الديناميت تكفي هذه المرة .. تكفي لتمتد النار إلى الصناديق
النائمة في القبو بجانب زجاجات الخمر المستندة إلى حائط طالما هوى عند
طرفه الآخر أخ ، أفرغت في جوفه صنابير ماء ، وفي جلده شحنات
كهرباء ، وتحت أظافره دبابيس حمراء .. وظلت مغارة النسور في الذرى
منارة تتدلى ظلالها من مقلتيه ، لتصفع غانية السين في وجه الضابط الأعرج ..

وفي جانب القبر الآخر أكداس من الجرحى العرب .. بعضهم قد قتل ..
وبعضهم سيقتل قبل أن يعذب أو بعد أن يغرس الحديد المحمى في جرحه
المتدفق .. سيقتلون جميعاً لكنهم لن يموتوا . فنحن نُقتل ولا نموت ...

إنني أتهاوى وأترنح .. الأشجار تدور والصخور تتدحرج والسيول
تتدفق .. وأنا أتسلق خيوط النور نحو مغارة النسور ، ويداي تسترخيان .
خيوط الألم الفولاذية تشدني إلى الصخر .. وأنا أرفع ترتيلي إلى الأبنجرة
الضبابية الدامية المتصاعدة من فوهة المغارة .. أنا أهوي .. أمرك يا سيدي ..
ستنفجر صناديقك .. ستعود أذن ابني إلى مكانها .. وأنا أهوي ..
أنادي كوحش ذبيح في القفار .. وأنا أهوي .. الأشجار والصخور تضيق
في العاصفة .. وأنا أهوي ... أهوي :

« ماذا أرى ؟ .. حنفي أمامي .. الاخوان حولي راكعون في الوحل
الدامي .. أسرعوا فقد وصلت الشحنة .. أسرع يا حنفي قبل أن يهرب
الليل مع العاصفة .. أنا بخير ... بألف خير .. انتظر .. خذ هذه الأذن ..
أعدها لابنتنا عندما تراها .. »

أحلق إلى مغارة النسور ممزقة المقلتين ، دامية النظرات .

النور يحملني ويطيّر بي إلى فوهة المغارة .. الأبنجرة الضبابية الحمر
تحنو على جرحي الدقيق .. دفء العرين ينسل في عروقي مع رائحة الطيب
والبخور ألحان ملائكة خافتة ، مجرحة ، عميقة الهدير ، تتسلل فتقطع خيوط
الألم الفولاذية .. لحظة اشراق عجيبة تغمرني والروى تنبلج أمام عيني فجراً
مدهش الضياء ...

أرى الدم يغلي في الأرض .. من كل ذرة رمل ينبجس جدول ..
النور ينسل من الكهوف المظلمة .. الطيب يفوح من الجثث المحروثة ..
الصخور تتمخض .. النار تنفجر من الصخر .. الشمس تبرز من الرمال ..
تسجد تحت أقدام جبابرة سمر الجباه .. أعصار يلتهب في كل عين ..

الأشجار والجداول والقبور المفتوحة تهدي : « الثأر يا سفحي ويا جبلي
ويا أعشاش النسور في المغاور » .

وأرى اللهيب والعواصف تهز برج إيفل .. وأرى الثلوج حمراء دامية
التهاطل .. وأرى غواني السين العجائز يتسرن بالظلال والعاصفة تغسل
عن أنحادي الوجوه المرعبة طلاءها الملون .. فتبدو الأفاعي والديدان الجائعة ..
والذعر يكتسح الساحات .. والعار يجلل شتاء فرنسا .. وأنا هنا .. أتمرغ
في طهارة الوحل الدامي .. وأرقب طلائع زحف هادر من بعيد .. وأرقب
انجلاء العاصفة ...

أضم القمر إلى صدري .. لم تقتله العاصفة وإنما غسلته .. وها هوذا
يرقص في ليالينا وقد ازداد نوره تألقاً وثباتاً ...

أسمع صوت انفجارهاثل .. أرى قلعة الشوّم تتطاير في الفضاء الرحب
هباءً ورماداً ... قلعة الشوّم ضاعت ... هباء .. هباء .. وأطبق عيني بسلام
بينما يبرز فيها فجر دام وليد ، وأنا أردد بلذة محمومة : يا مغارة النسور ..
لا أحد يموت هنا في الجزائر .

الطفلة محروقة الخدين

الليل والقمر وصحراء دمشق . وأنا بين ذراعيك .. ولكن . أغفر لي
برودي يا زياد .. أغفر لي اني لم أمنحك نفسي الرخيصة كما منحتها للكثيرين
من قبلك .. أغفر ليدي التي أبعدت شفيتك المحمومتين عن سفوح الجليل
الملتهب ، واغفر لقسوتي التي انتزعت من بين ذراعيك القويتين جسداً متعباً
يضج بالحنين ..

لكنني سئمت يا زياد .. سئمت ضباب الأوهام الذي أغرق فيه نفسي ..
وسئمت التظاهر بالتصديق . أمنح نفسي لقاء كلمات حب أعرف أنها كاذبة ،
ولكنني بحاجة إليها ، بحاجة إلى أن أحس ان انساناً حولي يعطف عليّ ..
بشاركني في ضياعي .. كنت أعب من السراب وأظل عطشى ، لساني
جاف مشفق كالصبار البري . أعب من شفاه كاذبة .. أعرف أنها كاذبة
ولكنني لا أستطيع التوقف ، فأنا امرأة متعبة ضائعة ، في أعماقي طفلة
تائهة محروقة الخدين ، تئن وتناؤه ، وتبحث بعينين خائبتين عن يد حنون
مضت ذات ليلة .. يد أمي التي سحقها ترام يمر أمام نافذة غرفتي كل يوم
عدة مرات .. كانت عائدة من السوق .. سمعت صراخاً ونحيباً فأطللت من
النافذة . رأيت كتلة من اللحم معجونة بالدم قالوا انها أمي ! .. وتوقعت
ان تتلوى القضبان ويتمرد الحديد ويتفتت الحجر ويذمي اسفلت الشارع ..
ولكن شيئاً لم يحدث ! .. ظلت الحافلة تمر كل يوم عدة مرات ... عيونها
الكبيرة البراقة تتحداني كل ليلة .. الناس الضاحكون فيها يسخرون من
عذابي .. يقهقهون بوحشية كأن أمي لم تتكوم ذات صباح على هذه القضبان ..

لحمًا رخيصاً معجوناً بالدم 1 .. لم أفعل شيئاً .. أغلقت نوافذ غرفتي على نفسي ..

أغفر لي برودي يا زياد ، فأنت لاتدري أية براكين في الأعماق أكابد وأعاني .. حينما ضمنتني إلى صدرك ، وسكبت أنفام هواك في أذني وهضمت باسمي وكأنك تمتص الحروف صرخت الطفلة محروقة الحديد في أعماقي :

— لا تمنحيه جسدك لأجلي هذه المرة .. نريد عطاء بلا ثمن .. نريد شيئاً كالحب الذي منحناه لحسان .. أما سئمت البيع والشراء ؟ .

أجابتها المرأة اللعوب التي هي من بعضي :

— لكن « حسان » كان يمنح بلا مقابل لأنه غير قادر على الأخذ .. في مدينتنا ندفع ثمن الكلمة الحانية لحماً أسمر .. ألا تعلمين ؟

— ولكننا لا نحصل إلا على التفاهة والخداع لقاء بضاعتك الرخيصة .. لقد سئمتنا ذلنا ..

— ادفع لأجلك وتعلمين ؟ . انك لا تستطيعين الحياة بلا خمرة الحنان . لقد أدمنت العطف الكاذب وعودتي دفع الثمن لأجلك ..

أجابت الطفلة محروقة الحديد :

— ولكنني أحبه هذه المرة .. والحب الحقيقي صحوة من صحوات الوعي لا سكرة .. أريد .. أريد أن أرى ما وراء البسمة ، اسمع ما وراء الهمسة وأعرف ماذا تعني اللثمة .. أريد أن أعرفه على حقيقته .. أن أفتح عيني للنور ولو أحرقتها .. سئمت ظلمة الهوى الكاذب .. أريد أن أعرف هل في مدينتنا إنسان واحد حقيقي لم يتحول إلى آلة تمارس الحب والصدقة بالطريقة نفسها التي تصب بها الحديد المصهور في القوالب البلهاء .. إنسان أضيع في عمقه ولا أسمع صرير الحافلة الكهربائية وضجيج الشارع ،

وصخب القطعان البشرية التي تندفق أحياناً من أبواب النوادي كالخرفان
الضالة ..

اغفر لي برودي يا صديقي .. فأنت دافئ كنيوان المعابد ، مثير
كأحلام العذارى ، رائع الرجولة كلاله وثني . كل ما فيك ظل يناديني
بجراحة ، بقسوة ضارية ، منذ ضمنتنا رمال الصحراء .. والليل .. والقمر ..
تمنيت أن ألبس النداء .. إن اضيق في الصدر الأسمر ، أدور مع الدوامات
المحمومة وأنش من الذراع المقتولة .. اقرب منك والشرر يتطاير من
شفتي ، لكنني أسمع الطفلة محروقة الخدين في أعماقي تبكي وهي تركض
هاربة من سهولي الحمر ملتعبة الحشائش إلى كهوف جليدية سحيقة وتصرخ
يأس : « حسان .. أنقذني يا حسان » ... تتناثر الثلوج تحت قدميها العاريتين ،
تلطخ وجهي ، تطفئ الشرر في شفتي . أبتعد عنك . ترسم في عينيك
نظرة غامضة . همس أنت بتحد مؤلم : « باردة !

أجل باردة ! .. قلبي مغاور جليد أسود تزيدها الأيام بروداً وغموضاً .
نيوان الحميم تراجع عن صقيعي ، وجمرات الرغبة الرجيمة تجف في
سفوحني .. لا شيء هنا سوى الثلوج . برد الشمال الأزرق يلف الجسد الأسمر
العاري ...

كلمة واحدة صادقة ، أو من بأنها صادقة .. بسمة حنون أشعر بأنك
ترفعها للطفلة محروقة الخدين بلا ثمن تصهر أكوام الثلوج وتبدد الشتاء
المكفهر في نفسي .. لو قلت لي أنك تحبني .. تحب عيني البريشتين وطفولتي
الجريح .. لو قلت لي أن مجرد وجودي قريبة يسعدك .. مجرد احساسك
بأنني أهتم باسمك في أعماق أعماق صمتي يرضيك .. لو قلت لي بعينين
هادئتين كبجيرة الأصيل : « أحبك يا صغيرتي » لذاب صقيعي ، ولغسلت
الطفلة بالدمع قدميك ، ولأضحى اللحم المضغوط طوع يدك .. ولكنك
لا تفعل ذلك . أنك تقطب حاجبيك وترميني بنظرة استخفاف قاسية بجاحدة ..

ونهمس « باردة ! .. »

لتحفز أنوثتي لدفع التهمة . أرمي بشعري إلى الخلف بدلال بينما أواجهك بنظرة تصهر غضبك وتشعل نيرانك من جديد .. اقرب بوجهي منك مشيرة محرقة .. أبسم لك . اني آلهتك السمرء القوية .. آه .. تسقط الطفلة في أعماقي على صخور نائمة وتسيل دماؤها في الصحاري الشاحبة :. لم تستسلم هذه المرة .. تتأوه قائلة : « لا تدفعي ثمن الفئات ، دعيني أتأكد من حقيقته ولو تعرضت لفقده .. لعله الإنسان الوحيد في المدينة .. حسان البلديد » . ولكنني كنت تلك اللحظة بين ذراعيك .. أريد أن أضيع عن نفسي في ضبابتك الحمراء التي تكاد تلفني .

بوجهك ضحكة فيها شبح حنان كاذب .. ولسانك يقول : « أهواك يا صغيرتي » ، وأنا أعرف أنك تقول هذه العبارة لأية امرأة في مكاني .. طفلي الذليلة تمردت اليوم لأنها تحبك .. انها تصر هذه المرة على أن تحيا حقاً أو تموت .. على أن تملك كل شيء أو لا شيء !

الليل والصحراء وأنت يا أتون النشوة ... ولكن ، لا شيء يثيرني ! أخضر لي يا زياد فقد سحبت غيوتي . انغماسي الابله اللاواعي ، وسعيمي اللاهث لاضاعة شعوري .. أريد الحقيقة .. الحقيقة التي تحرق أو تضيء .. سحمت انتظاري وجيني . أريد أن أعرفك . أن أقبلك دون أن أسمع صدى صرير عجلات الحافلة المجنونة .. أريد أن أفهم هل يمكن أن يشارك إنسان إنساناً آخر إحساساً واحداً في هذا العالم الكبير الصغير ؟ ..

إنك تضميني إلى صدرك بحنان مصطنع .. بدأت الراحة الذليلة تتسلل إلى جسدي فتغرقه .. لكن الطفلة محروقة الحديد لم تتخدر حيناً طمست شفتاك أصواتي وابتلعت احتجاجاتي .. بل ظلت تهوي من صخرة لصخرة حتى استقرت في مستنقع مصفر الخضرة .. انها تتلوى فيه والأفاعي تدور حولها وتلسمها كلما ازدادت شفتاك اطباقاً على شفتي . وابتعد عنك .. كأنني

ما اجتررت ذكرى لقائنا الأول ، في الصف ، ليالي وليالي .. كأنني ما
عبدت عينيك الزرقاوين .. كأنني ما ناديتها في ضياعي : « يا برك الضياء ..
يا عالم الصفاء .. يا عيني زياد الغاليتين .. اغرقاني في اللجة المسكرة » ..
كان الطفلة محروقة الخدين لم تجلس في أعماقي ودیعة كالقطة ، بينما كانت
يدي الصغيرة تضع في يلك القوية التي تتسلل وتمسك بها في الليل .. في
رحلاتنا الجامعية ... في حفلات التعارف البسيطة .. كان الطفلة محروقة
الخدين لم تغمض عينيها بغبطة الهية كلما تلامست أذرعنا بقصد أو بدون
قصد في الدرس بينما الأستاذ يشرح .. ويشرح .. وتضيع النظريات العلمية
وتبعثر في فضاء الصف مع عشرات النظرات الدائبة .

أجل أحبتك ! أحبتك بوحدي الدفينة تحت ستار مرحي ، وضياعي
المقنع بعيني وصادقاتي الكثيرة ..

وانفض قلبی عطشاً .. وانتظرت طفلي غيثك السخي ، حنانك ،
صداقتك ، وفاءك .. قيم ومثل طالما قرأت عنها وآمنت بها .. أحلام ضائعة
طالما لملت حطامها ورفوتها وحنوت عليها حنو امرأة عاقر على طفل
لقبط !

لم يكن من الصعب أن ألقت نظرك ، أنا التي تتحول إلى عيون الأساتذة
قبل الطلاب كلما دخلت الصف متأخرة ..

وها نحن قد التقينا ، والليل دافئ ، وسيارتك الفاخرة مريحة كأحضان
عاشق ، ورمال الصحراء الحارة تتلوى بغبطة مترقة في ضوء القمر .. لكن
الطفلة محروقة الخدين تتعجب :

« أحب هذا الرجل .. أريد أن أحصل عليه دون مساعدتك الدنسة ،
أريد أن أتأكد من أنه حساننا .. حسان لا يحتاج إلى وساطة » . أشمخ بصدري
فجأة حين أجيبها : « ستفقدينه .. لن تحصلي بنفسك حتى ولا على بسمة
حانية دون دفع الثمن الأسمر » .. تتأوه أنت لمنظري المثير وتضغظ أسنانك ..

أنا والطفلة في أعماقي يا زياد ما زلنا نحب حسان ... ونبحث .. نبحث عنه في كل عين وكلمة .. حسان ؟ تريد أن تعرفه ؟ ولكتنا نحن أيضاً لا نعرفه .. أنا والطفلة محروقة الخدين نجعل مكانه .. لم نره قط ! لم تلمس أناملنا يده القوية .. لم تتلاقَ عيوننا يوماً ! ولكتنا نجه .. نجه ..

أرى في عينيك دخاناً خاملاً وسؤالاً حائراً .. لعلك تتساءل عن سبب صدي وإعراضي أنا التي أعبدك .. أم انك تريد أن تعرف من هو حسان ؟ « حسان ! حبي الوحيد .. ما عرف بوجودي أبداً في هذا العالم الواسع أيام كان حياً .. وأنا .. لم أشعر بوجوده إلا يوم مات .. ومضى » .. أرى الحيرة في نظراتك والسأم في خطوط خديك التي ازدادت عمقاً وظلمة .. مهلاً .. لا تدر محرك السيارة وتعد بي إلى المدينة الجبارة : ألا تريد أن تسمع من هو حسان ؟ ألا يمكنك أن تمنحني بضع دقائق صامتة بلا ثمن ؟

حسان ! .. رأيت للمرة الأولى منذ أعوام — ضابطاً شاباً وسيم الوجه حزين العينين ساهم النظرات ، حنون التعبير — صورة كبيرة في إحدى المجلات وقد كتب تحت رسمه : الملازم الشهيد حسان !

رأيت الصورة كما رأها الآلاف ، ولم أهتم بمعرفة كيف ولماذا مات .. وكان ذلك يوم لقائنا الأول .. لا أدري أي صدى لقيت ملامحه في نفسي حتى قصصت الصورة ووضعتها في إطار أسود في غرفتي .. لعلها مراهمتي .. لعلها وسامته والحزن الآلي العجيب في عينيه .. لعله جوعي إلى المثل الأعلى والرجل الخالد . ولما جاءت إحدى رفيقاتي لتزورني ذلك اليوم ، أدخلتها إلى غرفتي دامة العينين وأنا أقول : أنظري صورة حسان .. حبيبي .. مات وسيظل يحبني أنا وحدي إلى الأبد ! « كنت أبكيه حقاً .. وكنت أبكيه كلما أحسست بضييق مبهم .. وكلما أحسست بحزن المراهقة الغامض إلى ما لا أدريه . فامسك بالصورة بحرقه وكأنني أنا الذي في حسان رغبت وأرى فيه

تجسيدا لأحلامي . انه رجلي الذي لا يخطئ . لي وحدي .. ملكي لا يشاركني فيه مخلوق .. أنا لا أرضى ببعض رجل ! أبداً كنت أريد حباً كبيراً حقيقياً أو لا شيء على الإطلاق ! وأضحى حسان حبي الكبير .. إنه لا يستطيع أن يخونني .. ان يعذبنني . انه ميت .. وأنا أحب بكائي أمامه .. وأحب الحقيقة في كونه ميتاً لأنه مثلي الأعلى ! ولأنه ككل المثل العليا لا يمكن أن يحيا ويتنفس في عالم الحقيقة القاسي .. يا لمراهقتي ومتناقضاتها وحيرتها !

ومرت أيام وأعوام وانغمست في عالمي .. ونسيت صورة حسان في بعض الفترات حينما كان يظهر في حياتي ما أظنه « حسان » جديداً ، أضع صورته فوق صورة الحبيب الأول واسبغ عليه صفاته وقيمه وأمنحه مكانته حتى إذا ما هوى صنمه في أعماقي وانكشفت حقيقته لعيني وسئمت الطفلة محروقة الخدين نجبه الشائك وماءه المر ، انتزعت صورته لتبدو صورة حسان من جديد .. هازئة .. ساخرة متحدية .. وأغلق نوافذ غرفتي لكلا أسمع صدى الحافلة الكهربائية .. « لست أدري لماذا يصبح صوتها ممزقاً رهيباً حينما أكون وحيدة دون صديق . وأحس ان لضجيجها وضحكات ركابها ابراً نارية تنفوس في عيني البخافتين المتوترتين كلسان وحش هارب . ويخيل إليّ اني أرى من خلال الستائر المسدلة على النافذة كتلة من اللحم والدم المعجون ، مرمية فوق القضبان تلتهم في ضوء القمر وتتاوه كلما مر الترام من جديد .. »

أجل أحببت حسان الشاب الذي أبحث عنه وأعرف اني لن ألقاه أبداً .. الرجل الذي رسمته أحلامي ولونته بغبار أوهامي .. حنوناً قوياً مخلصاً وفياً .. لم أجد ظل هذا الرجل على الأرض حتى رأيت الربيع يرقص في عينيك يا زياد .. وتلذذت بالجو الذي تخلفه حولك .. عالمك المشحون بالرجولة والفهم العميق .. واندفعت في حبك مجنونة لا أعني .. ظمأى لا أرتوي .. ومزقت الصور كلها ووضعت صورتك فوق صورة حسان .

فقد صرت أنت وحسان شخصاً واحداً .. والآن أحلامي رماد تذروه
الرياح حينما تقول لي : « باردة » ... أخشى أن تكون كالقطيع .. تحبني
إذا امتلكتني .. إذا وهبتك أنفه ما أملك . أما الطفلة محروقة الخدين ..
ادعيتها الصامته وهواها الخاشع .. وحدتها وحيرتها .. ضياعها ولهفتها .
فلا وزن لها لديك .. يدك لا تحتوي عليها . شفتاك لا تسمح خديها المحروقين ..
اذنك لا تتلذذ إلا بالتأوه الفاجر والحشرجة المخنوقة وطفلي محروقة الخدين
تود لو تهمس في أذنك حديثاً رقيقاً مرتعشاً كجنحي عصفور .

سئمت حديثي يا زياد لأنك لا تسمعه .. انك لا ترى في عيني سوى
آبار الكتمان .. إنك لا تسمع هذيان صمتي . أنا كتلة من برود .. وكرامتي
تأبى عليّ أن أنطق .. انك تدير عرك السيارة . ها هي ذي تدرج بنا لنعود
إلى المدينة .. مدينتي البلهاء تزينت بالأنوار الملونة ولكنها لن تضيء .. لن
تضيء زوايا القلوب المغلقة .. ضجيجها يسحقني .. يزيد في عذاب الطفلة
محروقة الخدين التي تنسل الآن من المستنقع أصفر الخضرة ، بينما أقبع أنا
في ركن السيارة أراقب طرف وجهك القوي وشفتيك المعبودتين اللتين
تهمسان : « باردة » .

أحبك يا زياد .. ولكنني أريد أن أعرف من أنت . أريد أن أرى الماء
يتفجر من الصخر حين يمنحني رجل حباً وعطفاً لقاء أغاني الطفلة محروقة
الخدين لا لقاء جسد أسمر .. أحبك يا زياد .. وحبي لك خلق في نفسي
الجرأة على التساؤل عن حبك .. عن الحب .. هل هو خدعة لصنيع رغباتنا
الترابية الحمر بألوان سامية فخمة ؟ .. هل ثقافتنا ونعمتنا وثيابنا التنظيفة
ورائحة العطر في عنتي وذقنك الحليقة مجرد خداع ؟ مجرد ترثيل ديني
كاذب في أودية الرغبة الرطبة الحارة ؟

سئمت أوثاني وسئمت « حساني » . أريد أن أرى كل شيء على
حقيقته .. أريد أن تكون صادقاً .. أن تقول لي : « أنا أشتهيك » ، فأمنحك

نفسي راضية مستريحة .. ولكن .. لا تقل لي انك تحب طفلي محروقة
الخددين بينما تتحسس ذراعاك وليمة الضياع في جسدي !

لا شيء سوى جسد متنفذ محموم ، وجبين يسكب حبات العرق
المراهق ، وكل ما عداه مقدمات وطقوس وفتات حنان ترمي بسأم إلى
الطفلة محروقة الخدين . أصبحت أنجمل حيناً أقول لك : « أحبك » . ها قد
وصلنا إلى المدينة المجنونة . عيونها الماكرة تسخر مني .. (تهرب الطفلة
إلى كهف مظلم .. تسدل شعرها فوق وجهها كي لا ترى شيئاً) .. الناس
كالقطيع الشارد على الأرصفة الرمادية والظلال في عيني المتعبتين أكثر منها
في زوايا الشارع والأزقة الضيقة .. وأنا هنا في ركن سيارتك أقرب وجهك
القوي وذراعيك .. انك تستطيع أن تحميني من نفسي وخوفي ورعبي لو
أردت .. أنا أكره الزحام ، والمحلات العامة التي تبصق أكداش الناس
كالذباب الميت ، وأكره الوجوه الملوثة بالأحمر بينما الغدر الأصفر يعوي
من المسام المفتوحة .. أنا خائفة أود أن تخفيني في صدرك العريض .. ان
تقول انك لي وحدي دائماً .. انك تحبني .. تحب عذابي ولهيبي ، صمتي
ونحيبي .. أحس ان أقدام الناس المسرعة تتحرك فوق رأسي وتهوي
كالمطارق بلا رحمة .. أكاد أنهار وأهوي على صدرك .. أهوي بذل
واستسلام وأستجدي خبز عطفك المسموم وينبوع حنانك الجاف .. الطفلة
محروقة الخدين تلور في أعماقي مذعورة وأنت تنظر إلى وجهي بين الفينة
والفينة وتغمغم بأسف : « باردة ... باردة » . النيران تشتعل تحت قلبي الطفلة
ولكنك لا تشم رائحة الدخان ولا تسمعها وهي تزجر : « لن أعب من السراب
بعد اليوم .. أريد ماء منعشاً كنسيم ليالي الصيف .. نقياً كاللمع . خالداً
كالحب الحقيقي .. نبأئبذ غيبوبي وأحيا أو أموت .. »

وصلت إلى داري .. أمد لك يداً ميتة ، أنظر إليك للمرة الأخيرة وأنت
تردد ساخراً آسفاً : « وداعاً .. يا باردة » ... أكره غرقي والنافذة المفتوحة

على ضجيج الشارع .. انني أغلق النوافذ كلها .. أرمي بثيابي على السرير والأرض والمقعد .. أحب أن أرى ثيابي تتناثر بفوضى .. انها توحى بالحركة ، بالحياة غير المفتعلة .. ثورة جارقة في أعماقي .. اكره مثلي وحسان واكره الطفلة محروقة الخدين .. فقد أمسيت بسببهم مثار سخرية زياد .. امسك صورة حسان . كم أحزن إليه ، انه مراهمتي .. انه الاخلاص والوفاء ولكنه لا يضم ! انه المثل التي طالما جبلتها ولكنها لم تتحرك ونحمني ، لم تجسد في انسان .. عبث .. كل ما فعلته عبث وكل ما قد أفعله عبث !

في الصحراء الواسعة النقية أحسست ان الطفلة عملاقة .. أما هنا .. في المدينة المزدحمة الملمرة الساحقة ، فان خدي الطفلة يزادان احتراقاً وسواداً وأنا هنا أحس بضياعي .. لم أعد أعرف ماذا أريد .. أنا بحاجة إلى إنسان يضمني .. عملاً أذني الحائفتين بحديث ساحر لا يقوى صرير الحافلة الكهربائية ولا حقد الناس على اختراقه .. انني أخاف دقائق الساعة الباردة الوحشية كنواح الغربان في وديان الابدية .. الحافلة الكهربائية تمر .. دواليبها تصر صريراً حاداً كمنشار همجي ينغرس في رأسي .. أفتح نافذتي يجرأة وانظر بحدة .. (على القضبان كتلة من اللحم والدم المعجون قالوا ذات مرة انها أمي) .. امسك بصورة حسان وأنا أضحك منها بلعبر وتمرد أحمر .. انني أمزقها .. أمزقها .. أطل من النافذة على العالم القلندر وأرمي ببقايا حسان .. تلتفها الرياح بشراة وتنثرها .. عيناه استقرتا في نجويف الشريط الحديدي حيث ستمر الحافلة بعد دقائق .. عينا حسان ! .. بركتا الضياء .. تتبخران في الضوضاء الفارغة .. يسحقها صرير الحافلة .. ويعجنها ببقايا أمي .. ليضحك القطيع بوحشية ، فحشرة نافهة تنضم اليوم إليه .. أتوق إلى السير في الشوارع الصاخبة والتسلل بين السيارات عند المنعطقات الخطرة ، حيث تمر سيارة سائقها مشغول بمغازلة صديقة زوجته ، وتنتشر على وجهي وثيابي بعضاً من برك الوحل المبعثرة في الطريق .. فتلوثني .. تلوثني .. أحزن

إلى التمرغ مع الناس في برك الطين .. أنا اليوم واحدة منهم .. طين معجون
بخمرة اللاوعي .. ليسخر مني صرير أحذية السكارى المتخبطين ، فأنا
حشرة تتأهب لتخوض سواقي الدم والتفاحة والرياء .. أنا سلعة جديدة في
سوق الحوارى جردتها من إنسانيتها ومثلها آلية العواطف المتبادلة وسطحيتها ..
أين ذراعاك يا زياد .. أحن إلى كلماتك الحنون صادقة كانت أم كاذبة ،
وحدثني المجنونة ترضى بالفتات .. عادت الحافلة .. أنها تقرب .. مقدمتها
المضيئة تلهب وجعتي .. نظراتي تتعلق بدواليبها الحديدية المذهلة التي تدور
وتسحق كل شيء .. والركاب ضاحكون لاهون . عينا حسان اللتان استقرتا
على الخط الحديدي المجوف تنظران إليّ بياس خلال الظلمة — أو هكذا
يخيل إليّ — لكنني لا أستطيع الحراك .. الحافلة تطحن عينيهِ وأنا أتنهد
بارتياح دام ممزق .. يهوي عالم في أعماقي .. تهوي أصنام وأصنام .. كل
شيء يهدأ بسرعة ولا يخلف سوى الرماد والحطام .

أسدل شعري بعنف على خدي كغاية محنكة .. اسرع إلى الهاتف
لأعتذر لزياد عن برودي ، وأضرب له موعداً غداً في أحد الملاهي الصاخبة ..
غداً .. حيناً أضحك له بعينين زجاجيتين ، وأزين مائدته باللحم الأسمر ،
سيقول اني حارة ، لن يشعر بغياب طفلي محروقة الحديد . لا أحد في
مدينتي يحب الأطفال محروقي الحدود ..

ساعة الهاتف تهتز في يدي بينما تضحك أنت فرحاً بعودتي واستغفاري .
انهار على البلاط البارد وأركع على ركبتني .. الطفلة محروقة الحديد تركض
في دهاليز حلزونية سود تضج بالعناكب والفراغ وهي تتنحب في شبه أنين
مكتوم تلاحقها عجلات ترام تعوي مسعورة في ليل الأعماق .. ويغيبها
الظلام وتلفها سحب الضباب والعدم في مغاور إنسانية لا قرار لها ..

ما زال حديثنا التلفوني الحار متصلاً وأنا أحدثك بغنج ودلال .. يمر
ترام جديد يمزق السكون فيطغى صريره على صوتينا وعلى ضحكاتنا ..

وعلى أتّين الطفلة محروقة الحديد في أعماقي ..

وأقف قريباً من النافذة وأحرق إلى الترام والسحابة في يدي وصوتك
في أذني .. باردة .. بلهاء .. عيني تنبشان الاسفلت الرمادي بحثاً عن كتلة
الدم واللحم المعجون التي قالوا انها امي ، بينما شفتاي كشفاه دمي مديني
المزيفة .. تضربان موعداً للعشيق الجديد .

رجل في الزقاق

ما زلت مغروسة أمام نافذة غرفة الجلوس وقد الصقت بجيني بزجاجها
البارد ، منتظرة مرور رجلي كعادته كل أمسية . الشتاء ينسل في عروق
بلدتي المنعزلة ، الزقاق الضيق الطويل مثبت ياهمال تحت أسياخ الظلام التي
سلخت كل آثار الشمس المريضة .. البيوت المحشورة على جانبي الطريق
تكس ظلالها المتعبة الباهتة في برك النور المتجمدة ..

بعد قليل يمر الهي المسوخ ! الرجل الذي عبدته دون أن أعرف عنه
شيئاً ، وانتظرت مروره مرتين عند هذه النافذة كل يوم .. « نظراتي
النهمة تتمسح بكتفيه ورقبته وتتوسل إليه بهوان ذئب أليف أن يقرع الباب ،
ويدفع ثمن الشباب ، ويحمل إلى داره طفولتي » .. انه الرجل الثالث في
حياتي ..

ظل أبي الرجل الأول حتى كدت أبلغ الرابعة عشرة .. ظل ينتزعني
من مساكن الشمس في أرصفة زقاقنا ويحملني بين ذراعيه الخائيتين مدلاً
حتى صبيحة ذلك اليوم المشؤوم . أحس وهجه في أضلعي وكأنه لم يمض على
انصرافه خمسة أعوام كاملة !! .. كنت أقف على اطار هذه النافذة بالذات
أمسح زجاجها بحيوية أربعة عشرة عاماً ، ثوبي الحريري يكاد يتمزق عن
جسدي .. الفجر الوليد ينسكب من صدري وزندي .. كنت أعمل بحماسة
كي لا أتأخر عن موعد مدرستي .. أدندن بأغنية حاملة تحكي قصة فراشة
ظلت تناضل حتى ثقتب شرفقتها المهترئة وانطلقت مرحة تغازل نجوم السماء ..
لا أدري كيف حانت مني التفاتة ورأيت أبي يقف أمام باب الغرفة مشدوهاً ..

نظراته عالقة بصدري حيث انتفض برعمان متمردان ، يدفعان الثوب
بتحدٍ .. بقوة الحياة .. بوحشية فطرية .. بصراحة بريئة الفجور .. تشنجت
نظراته هناك ولاح فيها صراع قصير الأمد ، ثم استقر تعبيرها وتبدى
فيها بعض من رعب خفي وحقد مبهم غريزي . وكأنه كان يسمع الصدر
البكر صارخاً متحدياً : « لا يمكن أن تظل دميتك المدللة إلى الأبد .. ألا
ترى أنها امرأة ؟ هي جدتك التي كان ينهرها أبوك ، وأملك التي كان
يضر بها ، وزوجتك التي تجفف لك كل ليلة قدميك »

.. لحظة مشحونة مريعة انتصبت بيننا وأفسدت ما سبق من ودنا وتقاربنا ..
سحب ضبايية سودها تعاقب الأجيال ضجعت وثارَت في دمه حتى ابتلعت
الحنان والاطمئنان في العيين .. عاصفة غبار نثرت هبت عن قبور سحيقة ..
عربدت ذراتها وتأججت بيننا .. حجبت عني دفء محبته وثقته .. جلبد
حقد مبهم تطفل على البسمة الحنون وظل كالعلق يمتص من صفائها
حتى أحالها إلى تكشيرة مقبنة تفور بالاستهتار والتحامل على أنوثتي .. حدث
هذا كله في أقل من ثوان .. في التقاء نظراتنا .. وشعرت بإحساء مكهرب !
لأنني أتيت جرمًا منكراً ! .. إن مجرد كوني امرأة عار لا يغتفر .. ان
في صدري وبروزه خيانة لصداقتي مع أبي ..

ودون وعي مني ، قوّست كنفني إلى الداخل ، وكأنني أستطيع إخفاء
صدري عن لسع نظراته ، رميت بالفرشاة ، قفزت عن النافذة وانفلتت
هاربة إلى غرفتي ، أبكي دون ما سبب واضح ، فنحن لم نتبادل أي
حوار !! .. لكنني فهمته جيداً كما فهمني ..

ما زلت واقفة أمام النافذة ، صدري يضج بعويل مبهم الانات ثار
واستيقظ منذ ذلك اليوم المشؤوم .. فيه بعض من صرخات طفلة موؤودة
في عصر ما .. وفيه بعض من نحيب أمي المختلس في غرفة نائية الجدران ..
وفيه من مدلة اخواتي الثلاث اللواتي تزوجن بعد أن زارتنا «خاطبة» ثرثرة

تشبه الساحرات ..

ما زلت مغروسة أمام النافذة !

أنفاس أمي وأبي المتكاسلة تتهاوى فوق الزجاج البارد .. خيبة مريرة
تنضح من احساسي المبهم بالذنب والعار .. الاحساس الذي تضخم مع
امتلاء قامتي وتغذى من ضيق أبي المهين ونجهمه ..

أرجو ألا يتأخر أخي كعادته كل ليلة .. أخي .. الرجل الثاني في حياتي ..
رفيق دربي أربع مرات في اليوم ، وحارسي الأمين أثناء ذهابي إلى مدرستي
الثانوية .. « لا مانع من أن تظل في المدرسة ما دام ليس فيها أساتذة شباب !! »
لا فرق لدى أبي سواء نجحت أم رسبت . درست أم أهملت .. المهم
انتظار الرجل الذي يخلصه مني ، من مصيبته الرابعة المغروسة أمام النافذة ..
مني أنا !

وأنا ما زلت أنتظر مرور الهي المسوخ !

الذكريات المؤلمة ترقص على الزجاج أمامي .. تقفز منه لتنهش من
هدوئي .. وأرى يوم انتهت سنو دراستي الثانوية وسجنت في الدار .. أرتدي
ثوبي الأحمر الضيق ، وأعرض على الحاطبات رشاقتي .. أدور أمامهن
وأحلم بالعاصمة الملونة .. بجامعة فوارة الشباب ، نهبت حيويتها وصخبها
وآثارها مع منابع الشمس .. مقاعد طويلة تزدهم بالشبان والفتيات .. أيام
تزخر بحياة حقيقية الامتلاء .. محاولة وخيبة ، نجاح وفشل ، حرارة تجربة
ونشوة نصر ، خطأ وضياح وإيمان .. متناقضات من ليونة حقيقة وصلابة
وهم .. أحلم بكلية الطب التي شغفت بها حباً ، أنخلق من الأوهام زملاء
أقف أمامهم في فناء الجامعة بشبابي المحتشمة ، نظيفة الوجه ، معقوفة
الشعر ، وقد فردت كتفي وشدت صدري إلى الخارج .. لماذا لم أجرو يوماً
على أن أبوح بهذا كله لأبي ؟؟ ..

صوتي الذليل الذي رجوته به كي يسمح لي بالذهاب إلى دمشق يرتعش

الآن أمامي في زجاج النافذة .. دوائره المتسعة تضيق وتضيق حول عيني
فتدنيه : « أبي .. أرجوك .. أعني هل من الممكن .. أقصد .. هل يمكن
أن أحلم بالذهاب إلى كلية الطب » ..

وكم كان جوابه مختصراً وبليغاً : صفعة على خدي ، بصقة إلى الأرض ..
وتخبط الحلم الذهبي بن سنابك واقعي ...

ما زلت مغروسة أمام النافذة أنتظر مرور أحمد بينما صوت « نارجيله »
أبي الكسول ينهش من أعصابي ببطء محموم .. فأحس الجمر في حلقي ..
والدخان في عيني وأنفي ، كم تزينت وتسالت إلى هذه النافذة في وضوح
النهار منتظرة مرور أحمد .. أعرض عليه مفاتيقي بقدر ما تسمح النافذة
الضيقة ورعبي من أن يضبطني أبي .. كم تأوهت وانتجت .. ابتسمت
وغمرت « حركات تثير اشمزازي ولا أملك سواها » حتى أحس بوقفني
بعد أشهر من عذابني ، وأضحى يتكرم برفع حاجبيه قليلاً ريثما يرشقني
بنظرة فخور ، ثم يعود إلى مشيته القوية . ولا أملك إلا أن أحبه ..

وأحبيته مبهماً مثيراً .. وأحبيته شبحاً تحوّل أمي وجاراتها أساطير طويلة
عنه . خيالاً لا أعرف عنه سوى جسد غامض يتحرك ليلاً في الزقاق
الضيق ، يغسله نور الشارع . ضوء يتفجر من ركبته ، يتلوى بغبطة عند
خصره ، يرتد عن صدره العريض ليعود ويضم رقبته .. أحبيته وهماً نائياً
ساحر البعد .. مدينة عجيبة الالتعاع ، لم يسمح لي بالدخول إليها وروية
أبوابها المهرثة عن كُتب ، فظلت أعبدتها مضيئة غامضة لذينة الرعب ..
أحبيته جزيرة مرجان ضبابية غارقة في بحار فيروزية .. وأنا على الشاطئ
القفير .. تشدني إليه نظرات أبي وذعر أمي .. ولا أملك إلا أن أعبد المرجان ..
أنشد من أبخرة الوهم تراويل أشجى من أنين عرائس البحر .. لو تُركت
أخوض في اللجة الفيروزية .. أجرب برد الماء وقذارة الماء ووعر الجزيرة ..
لو كان لي بعض حريتي لأدركت منذ زمن طويل أن أحمد الذي سحرني

بشاربيه الرفيعين رجل متزوج وشبه أمي ! .. وان هوايته تحنيط النساء .
ولحنبت القرحة البلهاء يوم جاءت أمه تخطبني زوجة ثالثة بعد أن سحرتة
غمزاتي ، وشاراتي السخيفة عند هذه النافذة ! يومئذ استيقظت من الحلم
الكريه وفوجئت بواقع أشد كراهة ! أحمد غني .. وأبي لا يجد مانعاً —
بل ويصر — على زواجي به ! ..

الخواطر المولمة تفيض من جوارحي ، وكل شيء يلوح الليلة غريباً
مهزوزاً لعيني .. القمر يرتجف .. يود أن ينطلق مذعوراً إلى حيث يفرق
في شمس ما وبضيع .. يتلاشى .. لكنه مقيد هنا في كبد سماء الشتاء ..
يرتجف ذليلاً زائع الظلال .. ينثر فضته مكرهاً ، ذله واستسلامه يثيران
حقلي واشمئزازي .. يجب أن أهرب بنفسي .. ان أحطم سلاسل تشدني
إلى شرققة مهترئة .. يجب أن أكون طييبة .. أتوق إلى الارتقاء في الحياة ..
يا لنيران هذه الغرفة .. انها تتأوه برداً .. تحترق دون أن تضيء .. ترمي
ظلالها المتعبة على وجه أمي القابعة إلى جانبها كشيبة الذل .. وعلى عيني أبي
القاسيتين اللتين أحس انه يغرس نظراتها في ظهري كي التفت إليه ، أنفاسه
المتسارعة توحى بأنه يود أن يحدثني ، لكنني سأصمد . لن ألتفت هذه المرة
إلا إذا ناداني باسمي .. لم أسمعته وهو يلفظه منذ زمن طويل .. حتى لو
ناداني .. فاني لن أجروء على النظر إلى وجهه ، فأنا أرى خلال رعبي كل
ما في الغرفة ، وأشعر بتيارات الغضب المتوهجة من مسام وجهه المفتحة
وأوداجه المتهلجة ..

لما الثامنة وأنخي لم يعد بعد ! ! أعرف ما سيحدث بعد ساعات
عندما يتتصف الليل ويدخل مترجماً .. يثور الوالد كالعادة ، يتهجم عليه
بجاهلاً أو متجاهلاً انه سبب مأساته .. تبكي أمي وتندب حظها الذي
ابتلاها بأربع بنات وشاب وحيد خذل زوجها الذي يريد أن يكون ابنه
طيباً .. ينتهي الشجار بسرعة بعد أن تتلقى أمي بعض الصفعات الموجهة

أصلاً إلى أخي .. وأتمزق أنا في الركن المظلم ، ويخيل إليّ انه يعتمد أن تسقط ضرباته على وجهها هي ، وانها أصبحت تفهم ذلك وترضى به في استسلام .. بل انني أشعر بأن أخي يدرك ذلك كله وتتفتت أعماقه بقدر ما تسمح لها أبخرة الحمر بذلك ثم يذهب كل إلى فراشه .. وتنام أمي كأن شيئاً لم يكن ! .. ويقضي أبي صبيحة اليوم التالي متوسلاً إلى أخي تارة ومتوعداً تارة أخرى ليقنعه بالذهاب إلى كلية الطب .. ويظل أخي مصراً على دراسة الموسيقى أو البقاء عاطلاً هكذا .. وتعلو الاصوات بينما أنا في الركن المظلم حيث نسيت الشمس أن تشرق .. أموت شوقاً للشوب الأبيض والمخبر ورائحة الكتب السميكة ... تذبح أمام عمري فوق عتبة النافذة .. وأخي مشرد ممزق يدفن عذابه في الخمرة وفي شوارع البلدة النائية وصدى يلاحقه : « أنا .. ما عندي بنات دكاترة ولا ولاد مزيكاتية .. »

ما زلت أنتظر أحمد أمام النافذة .. أحاول عبثاً إخفاء رعشي وأنا أحس نظرات أبي تنغرس حادة في ظهري .. تنفذ بيرودها إلى عظامي . تختلط بقطرات دمي المذعورة .. برد متعفن القدم ينبع من كل مكان .. من الجدران الصلدة ، من جزر أكلة لحوم في العيون .. من الاسفلت الرمادي الكثيب .. من صرخات أبي وذل أمي وهي تحضر له الماء الساخن .. تجفف قدميه بيديها . أحس البرد المتعفن يتدفق من أطراف أصابعها .. يتكدس عند قدميها .. برد أزرق مريض ينسكب من أجيال تجثم على صدرها .. يتدفق غزيراً . يتدفق من النوافذ .. يملأ البلدة ويغمر زقاقنا .. يرتفع ويرتفع حتى يكاد يخنقني .. يطفئ نيرانني وثورتي وتمرد أوهامي .. وأنا أهرب وأهرب من صقيعي الدليل إلى عالم خيالي .. إلى شبح رجل كان يتحرك كل ليلة في الزقاق الضيق ... تمزق مسامير حذائه الصمت بينما تنشق النوافذ على الصفيين قليلاً . تنحشر وراءها رؤوس نساء ذليلة .. تتبدل نظراتها إلى الشارع كألسنه كلاب مسعورة اللهاث .. وتظل نظراتها تلعق كتفيه وشفتيه وركبتيه وخصره .. تسجد لرائحة الرجولة المنبعثة حتى من موطئ قدميه ..

وتظل أوهامنا تحرق البخور لأي رجل يمر .. لسر الأسرار .. للغز المغلق
المثير .. للنبا المدهش : رجل في الزقاق ! ! .. وهكذا أحبيت أحمد منذ
توجت في دراستي الثانوية بالصفحة والبصقة .. منذ أضحى الزقاق الضيق
عالمي ، معبدي ، ترابه المقدس يطأه رجل ليس بأبي ولا أخي . رجل قد
يدق بابي ويجرني إلى هيكله الغامض .. هكذا أحبيت أحمد ! .. فارساً
أسطورياً أجلس وراءه على جواده المسحور وأطوق خصره بذراعي ، بينما
يطير بي إلى ليال من سحر ألف ليلة وليلة .. إلى حيث المجهول .. وأنا
أهوى وأخشى المجهول ..

لماذا تأخر إلهي المحطم الليلة ؟

أريد أن أراه .. أن أتشفى من نفسي برويته ! ! ..

أتشفى من أشهر قضيتها أحلم بكنهه العريضتين ومشيته المبهمة ،
أرقه وأضاحكه ، أدور أمام أمه كلما حضرت خاطبة مراقبة ، أعرض
عليها مفاتيحي وذلي واستسلامي ، منتظرة أن يحضر ذات ليلة لبشري جدائي
ويشدني منها إلى داره .. أريد أن أتشفى من ذلي وعاري ..

أبي يتنحى في مجلسه ويلكز أمي بطرف قلعه .. يتوقف شخيره
المتقطع وتساءل : « ماذا حدث » ؟ .. يجيبها بخشونة « قولي لا بتك أن
ترتدي ثيابها بسرعة .. سيحضر أحمد مع أمه الليلة لقراءة الفاتحة ! ! »

أظلم بأن كلماته لا تعنيني .. لا تحملني في دوامات من جمر تن
وشوك أجرب .. ويخيل إليّ أن في عباراته رعدة خوف مبهم وكأنه يود
التخلص من النبا بسرعة ، كمجرم يحمل قبلة ملعرة ويريد أن يرمي بها
وينتهي .. أمي تنهض لترتدي ثيابها ، وأنا هنا ، تمثال من برود أمام النافذة
يزداد انكماشاً وتجمداً ..

ها هو ذا أحمد يلوح في آخر الزقاق بينما تدب أمه بجانبه .. لأنني قنفل ..
أتحرك إلى أحد أطراف النافذة وأتكوم بأشمزاز ، أشواكي تنتصب حادة

متحدية .. جو الغرفة مشحون بانفعالاتي الكارهة .. قامته تقترب في الزقاق وأنا أزداد انكاشاً وشهاته بنفسي .. النور يتفجر من ركبتيه .. يتأوه عند خصره .. يرتد عن صدره العريض ثم يدور بشدة حول رقبتة .. وهو يسير بثقة قاسية .. مسامير حذائه ترحف على وجهي في كل خطوة ... القيد ينغرس في لحمي كأوي البرودة .. أريد أن أهرب .. أبي يقف أمامي في يده صفة وعلى شفثيه بصقة .. أريد أن أهرب .. أمي تجفف قدمي أبي والبرود ينسكب من أصابعها .. أريد أن أهرب .. البرود ينسكب من أجيال تعول في صدرها .. يغمر الغرفة ، يغمر الزقاق ، يغمر حنقي وتمردني ويحمد ثورتي .. أحمد يقترب .. مسامير حذائه تنغرس في مقلتي خطوة إثر خطوة .. رؤوس النساء تنحسر وراء النوافذ ونظراتها تلتق موطيء قدميه ..

جاء في موكبه المريع بعد أن ناديته ليالي وليالي بعينين معصبتين .. انه يقترب .. انه يقترب وأنا ما زلت واقفة ، كتلة من صقيع ..

لماذا لا يتحرك الصقيع الابله في ذرات المعادن والأجسام الساكنة ؟ يتناثر ثلجاً ناصعاً .. ثلجاً يفور بعنف في الشوارع .. بصراحة .. بعري مذهل الصديق خيف البياض ؟ الباب يقرع ، أبي يصرخ « ارتدي ثيابك وتعال .. وصل أحمد وأمه ! » ..

أركض إلى غرفتي ، السأم المتمرد يتناثر تحت أقدامي ، أحشر صدري وردفي في ثوبي الأحمر الذي أعدته أمي ضيقاً مشيراً لأرتديه كلما جاءت خاطبة .. أرفع خصل شعري بينما يتدفق في كل شعرة تيار ألم مرير اللذ .. أقف أمام المرأة .. أرقب رقبي البيضاء الشاحبة كعنزاء مقتصة .. أتمسك بأسف كتفي وساعدي ..

أمي تفتح الباب فجأة صائحة : « ألم تنتهي بعد ؟ أحمد يريد أن يراك قبل أن تنفق على المهر ! » أسير وراءها بلهول .. أمي .. أمي تصرخ اليوم وتتمنر .. نسيت كيف اشتراها أبي ذات مرة .. لتسكننا على الأرض بلا

احساس بالخلق والإبداع كآية آلة تفريخ .. وأنا أيضاً .. علي أن أقتنع وأقنع .. أن أصمت وأتقدم ..

أدخل غرفة الرعب ، يجلس في أحد الأركان أحمد وأبي يتسامران .. شكله مختلف كثيراً عن رجلي المتخبط في الزقاق . إنه كرية المنظر ، كرية الرائحة . كرية البرود !! . يذكّرني بالمقبرة في الجانب الآخر من البلدة .. نظرة أبي القاسية تنسكب فوق رأسي ، انني أدور أمام الرجل متظاهرة بتقديم كأس ماء .. أعرض عليه غنائه .. عيناى تصرخان به : ارفع الثمن .. ألا ترى الحصر النحيل ؟ ارفع الثمن ! ألا ترى عناقيد العطر الشفافة وسلاسل الليل ؟ .. ارفع الثمن ! .. فأنا ذليلة لا أثور إذا عرفت انك تخون .. وأنا سأبكي ذات يوم إذا مرضت ، لا خوفاً عليك ولكن خوفاً من أن أموت وأولادي جوعاً .. وسأنتحب بصمت إذا ما عدت ذات ليلة وحمرة شفاه رخيصة تلتطخ قميصك ... فالمفروض انني غيبة ومطبعة .. ذكائي يتوقف عند مساعدتك على خلع حذائك ، وصلتي بك تنتهي عند حافة فراشك ، حيث تخرج أنت إلى عالمك .. عالم الرجل .. وأنا أدرك هذا كله فأرفع الثمن ! ! ..

نظراته ما زالت تنبش الثوب الضيق .. تنغرس في اللحم الطري حيث اوزن يبرود لا انساني .. بعد دقائق وانضم إلى أمي وجداتي ، اجتر همسات الزقاق الضيق ، والعن بأوهامي أجساد العابرين ..

للمرة الأخيرة أنظر إلى عيني أبي غاضبة مستنجدة .. يصعقني بريقها الوحشي كلما دق بابنا خاطب .. يخيل إلي انني رأيته في ألف ألف جيل ولدت فيها قبل أن أولد هنا . رأيته منذ أكثر من ألف عام في الصحراء .. بينما كانت عباءة أبي تطير وراءه ومخالبه العشرة تنبش الرمال وتحضر لوأد سنواني العشر ! وأراه الآن وأنا أكاد أدفن في صدر رجل مجهول .. صوت أبي يوقظني : « انها موافقة ، وصمتها الذي تراه مظهر

نحجلها « وأهوي من جديد .. سأكون لهذا الرجل مدى الحياة ..
شفاه كل من في الغرفة تدمدم .. لعلهم يقرأون الفاتحة .. وأنا أسحق
بين مد الدوامة وجزرها ..

الآن أدرك ما الذي كان يدفع بيجارنا إلى العودة كل ليلة بقبيص ملطخ
بأحمر شفاه رخيص .. انه يجد عند الأخرى قذارة .. ولكنها عارية ..
صادقة العري ، فاجرة البوح بالشر الحقيقي .. وهو يفضل هذا كله على
فضيلة زوجته المكرمة المزيفة ..

انفجر البركان .. انسكب المطر .. هدرت السيول .. انهض والشرر
يتطاير من مسامي وشعري وأناملني .. نظرات أبي المدعورة تستوقفني قبل
أن أخرج من الغرفة صارخة « لن أتزوج من هذا الرجل .. أريد أن أتم
دراستي » . أحمد يتضاءل أمامي .. يتضاءل .. يستحيل إلى قزم .. يتسلل
من دارنا مع أمه ، وأنا أردد بلذة محمومة : أريد ... أريد .. للمرة الأولى
اتجرأ على أن ألفظ كلمة « أريد » ! .

أمي وزوجها ينظران إلي بذعر ولا يقويان على الكلام . ذلي المتنرد
عقد لسانها .. حنفي المسعور أيقظها وأنا أردد : « سأذهب غداً إلى الجامعة » ..
نحيل إليّ ان أبي قد ينهار إلى الأرض في إحدى نوباته القلبية .. أحبه ..
أتمنى أن أغسل عن وجهه غبار التعب . لكنني لن أفعل .. لن أراجع هذه
المرّة .. يجب أن يكون هنالك ضحايا .. يجب أن أتحرك ... ان يتدفق سيل
من الأنوار الدافئة .. يتراجع أمامه الصقيع الأزرق .. وأهتف بأبي :
« امنحني ثقتك وبركتك .. فلا مفر من أن أذهب إلى الجامعة يا أبي .. »

وينسحب من الغرفة وقد حنا رأسه أكثر من عادته .. وأمي تتبعه إلى
حجرتها صامتة وفي ركن عينيها رضى خفي وسعادة مبهمّة ..

بينما اتجهت أنا إلى النافذة الزجاجية لأحلم بالارواب البيضاء ورائحة
المختبرات .

في سنن والحي

(*) تُرجمت هذه القصة إلى الإسبانية

حديقة الفندق تعبٌ من نرف الأفق ، الظلال الدامية تنسكب على الغابة الموحشة الهاجعة أمامنا ، تتوهج فوق السيارات المصطفة في الساحة السفلى تلتهب بها وجوه النسوة ، تمتزج مع ألحان العازفين العذبة في هوية الهية يزحف الراقصون معها إلى كهوف النشوة والسعادة .

أمي جميلة في ثيابها السود ، صديقتها الثرثرة تحرك فكها الأسفل ويلوح لسانها النابض وكأنه ذو شطرين . المقعد الذي أجلس عليه ملصق بالافريز الحديدي الملون ، وقريب جداً من سيارة بهاء .. قال انها سيرحلان عند الغروب .. بعد لحظات ينطلقان إلى حيث لا أراه أبداً ، كما مضى أبي منذ أشهر .. أعرف أين ذهب أبي ، أستطيع أن أنقل باقة البنفسج التي كان يحبها من غرفته إلى قبره الرخامي . أما بهاء .. فسيرحل مع الشمس إلى حيث لم يلحق بها أحد ..

أغصّ بضحكة عابثة انطلقت من مكان ما . تغيظني . لماذا يضحكون ؟ سيذهب الليلة .. كيف يرقصون ويغازلون ويتنزهون ؟ كيف تظل أعصاب الياسمين تنفض شذاها كأن شيئاً لم يحدث ؟ وحيدة . العالم دوامة هازقة لامبالية .. الشمس تجوب مسالك جبال مجهولة .. الليل ينفض دماءه السود . الخريف يتشي في الظلمة ويزفر أنفاسه في نسيمات باردة . ارتعد . أنكمش في مقعدي . أحب كبرياء الخريف واحتضاره الخفي . خريف بهاء ، كم أحبيته ! أعوامه الخمسة والأربعون كانت غلالة غموض عميق شدتني إليه منذ الوهلة الأولى . مذ أومأت أمي إلى رجل يمشي في صالة

الفندق قائلة : « هذا أحد أصدقاء والدك الذين أضاعوا شبابهم في اللهو والتنقل » . وسمعت فحيح صديقة أمي يهمس : « لا ريب في انه اختار هذا المصيف المنعزل ليلتقي بإحدى عشيقاته .. سمعت ان عشيقته الأخيرة شقراء .. إنه يتجه نحونا .. »

سكتت عندما مد يده بحبينا ، صافحته أمي بحزن إضافي كأنما تريد أن توحى إليه بأن وجوده ذكرها بالمرحوم والدي وبأنه مدين لها بكمية لا بأس من كلمات التعزية . لكن كلماته كانت مقتضبة . أحسست اني أمام إنسان يكره التملق . يعرف جيداً كيف يدفن الماضي ببساطة ويهتم بالحاضر والمستقبل . وكنت أنا المستقبل . جلس طيلة أمسيته الأولى يداعبني ويحدثني كأنني أعرفه قبل أن أولد . لم يكن كثير الحركة والقلق والضجيج كالشبان ، لكن صوته كان عميقاً ناضجاً مثقلاً بالتجربة . حديثه ألهم كل ثانية من ثواني أعوامي العشرين . ولما نهضت لأنام ، كنت دغلاً تتأجج مجاهله بعدما عاش دهوراً يبحث عن شمس ما .. ولما نبت مع الفجر بين أشجار الغاب ، في اليوم التالي ، قفزت من مقعدي في الحديقة لألقاه .. ولأسمع محاضراته عن فوائد النزهة المبكرة في الغابة .. لم أكن بحاجة إلى اقناع ، كانت رؤيتي له كافية .. وكان الغاب خير رفيق ..

لماذا لا تحدثني أمي وتنقذني من خواطري ؟ ما بالها صامته ؟ لماذا لا تروي لي - كعادتها طوال الشهر الماضي - ذكرياتها مع أبي وبهاء في الأيام الخوالي ؟ .. لماذا لا تقول لي بلهجة ذات معنى انه كان في الخامسة والعشرين من عمره يوم وضعتني ؟ .. انها صامته كاللوت .. تراها تعرف انني أحب أعوامه الخمسة والأربعين ؟ لا أحب إلا أعوامه الخمسة والأربعين ، أحب شعيراته البيض حين تسطح في أعماقي كأبهى فجر .. وأحب وجهه المجهد وحيويته الضائعة وأحب سحابة الكتابة المبهمة التي تلفه كلما جلس وحيداً ينتظرني ..

أبداً لم يقل ان أيامه مياه جداول تتكسر بين الصخور الصلدة باحثة عن ذرة تراب تسقيها .. عن شيء ما تخلقه وتبدعه ... لم يقل ان لوه وعبه يمزقانه .. لكنني فهمت كل شيء ليلة تأملته وهو يجلس وحيداً في الحديقة ..

كانت ليلة هاربة من كهوف الشتاء ، لذا أوى النزلاء إلى غرفهم مع خيوط الظلام الأولى . لم يكن يدري ان أحداً يرقبه ، كان يحدق إلى طير يقفز يحنو حول عصفور صغير خذلته أجنحته الفتية .. اهتمام ملتاع عجيب رقص في عينيه . شيء لزج كالدمع تشبث بمقلتيه ، تنهد بارتياح عندما تمالك العصفور الوليد نفسه وحوم من جديد بينما الطير الكبير يعلو ويهبط حوله بحرص البخيل ، نادى خادماً الفندق ، طلب منه فنجان قهوة ، أتى بها الخادم وهو يلتفت حوله متعجباً ، أخذ بهاء يعب من الأول بينما أزاح الثاني إلى الجهة المقابلة من المنضلة أمام المقعد الخالي تجاهه ، خيل إلى أن أبخرة الفئجان المهجور كانت تمس أعماقه بدفء مبهم . لم أخيب أمله . جلست أمامه ، أحسست بأنه تضايق . لا يريد أن أفاجئه وأتأمله . أعماقه في تلك اللحظة عارية ، لم تكتشف مجاهلها وشطآنها البنفسجية امرأة بعد ، وتأملته بفضول وألم وتحد .. أبداً لن أنسى وجهه .. كان عميق الحزن صامت الحزن كأبدع وأسمى خريف .. آلامه المبهمة تطل بسمو كقمة جبل بعيد تلفها غلالات ضباب هادئة كالكبرياء . وكان وجهه ندياً كروض عبث به زخات الخريف المنعشة . خيل إليّ انه يبكي بمسامه ، يبكي بكل حواسه ، ينضج حذاباته بصمت السنديان . لم أقل شيئاً . ظللت صامتة . بعد دقائق سألتني :

— هل يضايقك صمتي ؟

أجبتة : « ما أحلى الكلمات التي لا نقولها عندما نحس ان الحرف عاجز عن استيعاب انفعالاتنا » .

وانقضت فترة صمت أخرى قبل أن يهمس بصدق عجيب : « أنا
أتقن صناعة الكلام والغزل ، أما أنت فسامنحك صمتي ، هل تقبلين ؟ » ..
لم أجب . لم أهرب بيدي من أتون يده عندما أطبقت عليها دافئة حانية ،
منجدة مستنجدة كشفاه ظمأى ..

ولما عاتبني أمي ليلاً لم أغضب . ولما ذكرتني بأنه كان في الخامسة
والعشرين من عمره يوم ولدت أحسست بالزهو والسعادة . قبلتها فجأة
وأنا أقول : أحب الخريف يا أمي ... ولما مضيت إلى فراشي لم أتم ، دخلت
بعد ساعتين وكأنها تعرف انني لم أتم ، قبلتني بحنان عميق أيقظ مخاوفي ،
تمسكت بوسادتي وطلبت منها أن تفتح النافذة لتدخل رائحة الخريف ..
لم تقل شيئاً فأيقنت أنها فهمت كل شيء ..

لماذا أستعيد هذا كله ؟ .. نظراتي معلقة بالباب الكبير . بعد لحظات
يهبط ليرحل مع شقرائه .. انه لم يحيني . كان ينتظرها .. كنت دميته
الصغيرة . لا لم أكن دميته الصغيرة . لماذا أخدع نفسي ؟؟ كنت شيئاً ما
في وجوده .. وإلا فلماذا جمعدنا منذ أيام بينما كنا عائدتين من الغاب ؟ لماذا
وقف كتمثال عذاب صلد عندما دخلنا الصالة وأطلت علينا ساعة الفندق
العتيقة كشیطان شامت ؟ .. كانت قضبان غطائها الخشبي أنياباً سوداء
حائقة . كانت تدق بيلاهة .. بلا توقف ملايين من دقائقها تقف بيننا ضحكاتنا
خبت .. الأخاديد في خديه ازدادت عمقاً . أحسست اننا نتقلص والساعة
تتسع ، ودقائقها تعلو ، نتقلص . الصالة تظلم . جدرانها ترتفع ، تغيب في
السما . السماء ضيقة وصغيرة وبلا نجوم . الساعة تعول . نتقلص . نحن جردان
في أرض صليدية عفنة . الساعة إله وثني أسنانه السود لا تشبع ، مددت
يدي أبحث عن يده . وجلتها متعبة مسترخية بجانبه . أمسكت بها . كل شيء
في مكانه وصديقة أمي اللجوج تلقي علينا تحية الصباح بلهجة ذات معنى ،
قال فجأة بخشونة : « لن أراقصك الليلة . انني متعب » .. لم أجب . أضاف

كأنه يعذب نفسه : « انت طفلة وشابة لا تتعين .. أما أنا فقد هربت ..
لا تنسي هذا ، لا تنسي حديث الساعة » .

أمي تبدو الليلة مضطربة . ترقبني من طرف خفي ولا تجد شيئاً .. لماذا
لا تثرثر صديقتها اللبلة كالعادة ؟ .. في وجهها ظلال اسف تكسوها بمسحة .
إنسانية لم الحظها من قبل . ماذا حدث لهما ؟ تنتفضان . ها هو بهاء يحمل
إحدى حقائبه ويقترب . الشقراء التي وصلت إلى الفندق صباح اليوم تسير
إلى جانبه . غيوم في أعماقي . الرعب . التحدي . المصير . لماذا هرب ؟
صواعق الشتاء تزحف وصقيعه كذلك . لماذا يهرب التحريف ؟ فتحننا له
نوافذنا وادغالنا .. لماذا يهرب ؟ موافد الشتاء تملأ أعماقنا بالدخان . الدخان
يلون كل شيء . الموسيقى والألوان والناس يغوصون . لا شيء سوى
عينيه . يقف أمامي مودعاً . يده تضم يدي بلهفة . أمي تبكي . لا أعتقد
أن ذكرى أبي هي السبب . نظراتي تنسحب بوجهه في تمزق يائس .. عشيقته
وقفت جانباً . أسلاك شعرها الشقر تغوص في خدي .. وجهه يملأ الكون
كله .. وجهه يغطي السماء والوجود بعوالم جديدة من قلق واستسلام وغربة .
شفق في عينيه . وجهه يتقلص .. الأسلاك الشقر تبدو من جديد . الضجيج
يمد زعائفه وأمي تصافحه بحقد مبهم . لا تتقبل تعزيتيه ببهجة مازوكية كعادتها .
صديقتها اللجوج تتأمل عشيقته بحقد امرأة ! لم أكن أصدق ان مثل هذه
المخلوقة تستطيع أن تحقد . يهبطان إلى الساحة . الأضواء تنزلق عن وجهه
عندما يغيبه جوف سيارته .. لا أراها . أنها تلتصق به . تحتل مكاني بجانبه .
غيات حنان عينيه تمطرها اطمئناناً وسعادة . الاسفلت يركض تحت العجلات .
الظلمة تبتلعها بنهم . الموسيقى حولي تستحيل عويلاً . الأحذية تقفز ..
تدور . كعوبها الحديدية تدق فوق دماغي .. تنغرس في رأسي .. الساعة
تلوح من بعيد .. تقترب . أسنانها الخشبية تريد أن تمضغني .. المقعد يدفعني
عنه ، انطلق . اصطدم بالراقصين . يقفون في وجهي . يحجزونني كي
يمضغني شيطان الساعة العتيقة . اختنق .. أذافع عن نفسي كوحش سلطت

على جراحه أضواء العالم كلها. أكافح . أسبح في المحيط الآدمي المتلاطم..
يفسحون لي مكاناً .

أظل أنطلق إلى غرفتي . إلى شرفتي التي تطل على الوادي ... لا ضجيج ..
لا إنسان .. لا أحد يحس معي ، الوادي يلوح عميقاً حزيناً خفي القاع ،
عالم من خريف وغموض وظلال ، عالم من كبرياء وصمت . لو أهوي
فجأة . أتقلب بذعر ثم استسلم للفضاء . امترج بالعاصفة والطين والاجواء .
أنا ذرة دنسة مدارها معزول في فلك من وحشية وعويل ، لا صديق . عواء
بعيد حزين ملتاع يصعد إلي من الوادي العميق .. ينتحب في انات إنسانية ..
يناديني .. لو أهوي إلى جانبه .. فيتناثر جسدي قطعاً دافئة تظل تنتفض حتى
تذوب في الخريف ... يلحق ابن آوى جراحها بحنان . أنا معبد خوف وشوق
واشمزاز ، لو أهوي !

يد على كتفي . أمي تضميني إليها . أدفن وجهي في صدرها وانشج
ببؤس ممزق . تقول لي بتعاسة حقيقية : في البداية خشيت عليك من خداعه ..
ولكنني خشيت عليك أكثر من صدقه ...

لا أجيب . أظل انشج . أبلل صدرها بأساي المفجع ، تضميني بحنان
وتقول : « هذه ليست نهاية العالم . أنت شابة وغداً » .. وأقاطعها بتحدٍ
ومكابرة وأنا أردد : مالي وله ؟ من قال انني أحبيته . انه في سن والدي ..
في سن والدي ...

من قال انني أحبيته ؟

المحلون

جائعٌ هذا السوط القابع في قعر الدرج منذ عدة أعوام . الدم ، عطش
الأفاعي في رأسه إلى رائحة الدم. يدها المتشنجة تتحسسه بعد أن أطفأت نور
غرفتها وتأهبت لمغادرتها .. نحن إلى أن تروي ظمأه .. أن تلسع ظهرأ معروفاً
أسمر ... السوط ! .. هدية أمها ... متى تعود أيام نشوته ، فيتلوى مخموراً
بالدم الحار ... الدم ... تغلق الدرج وتخرج من الغرفة تفكر ..

« يا إلهي ! دع المساء البربري يفرق الوادي ويلعق عرق التافهين عن
الدروب ، كي يجيء لؤي من قصر أبيه في الوادي القريب ، ويجلس أمامي
بوجهه المش القاسي ، نتحدث عن اللوحات ، والعقد النفسية ، والكتب
التي اجترناها ، نفلسف الأشياء ، نتلذذ في حوارنا الارستقراطي العقيم
لأن الفلاحين البلهاء في الوادي لا يفهمون شيئاً من حديثنا » ...

هذا ما كانت تردده وهي تهبط الدرج بعد خروجه من غرفتها متجهة
نحو القاعة الكبرى في قصرهم الريفي ، لتخرقها في طريقها إلى الشرفة
المطلّة على حقول شاسعة مرمية بين سواعد جبلين ، مستجلس كعادتها مع
أبيها في كل أمسية .. تتأمل وجهه بفضول وغيظ حيوان أليف ، وتعيش
دوامات ذعرها ونخبتها وحيدة ..

تصل إلى القاعة . ترتعد قبل أن تدفع بابها . تدخل .. لو ان الظلمة
تتمدد فتحجب عن ناظرها المرايا التي تطلّي الجدران بطريقة خاصة كثيرة
للزوايا ، توحى للانسان المنفرد في القاعة بأن مئآت من الصور المشابهة له
بكافة الزوايا والأوضاع ، ومئات العيون المذعورة تطل عليه ..

تساءل كما تساءل الفلاحون طويلاً :

« لماذا جاءت أمي بهذه المرايا كلها من المدينة بعد ما هجرتها لتتزوج أبي ؟ ما معنى مئات العيون التي تطل من كل ركن وزاوية ، تتأملني والخوف يأكل منها ؟ ماذا كانت تعني بالنسبة إلى أمي ؟ لماذا كانت ترقص أمامها وتنشد فتتلاً الثريات وتتقاذف المرايا أضواءها فتضعف آلاف المرات وتسقط على خيالات لمئات العيون التي تحديق باعجاب .. سراب .. لم يكن في الغرفة سوى أمي وعيني أمي واعجاب أمي ! »

تخرج من القاعة الجهنمية بعد أن تعدو خلالها دون أن تنظر حولها . شبح أمها ما زال يرقص أمام عينيها ويغرقها برعدة عجيبة ... ذات يوم مستحطم هذه المرايا بوجهها .. بكفها .. سفتح نوافذ القاعة الرهيبة لتخرج من جوها الخائف ضحكات أمها الشيطانية العذبة التي طالما خافتها ... لشد ما تكره تلك الأيام ، حينما كانت تقبع على أرض الغرفة لأن ساقها كانتا أقصر من أن تسمح لها بالصعود إلى أحد المقاعد بلا معين ، واهتمام أمها كان منصرفاً دائماً إلى ترتيب ثوبها الحريري الأحمر الذي تألفت فيه ذات مرة كأشهر غانية في عاصمة البلاد ، هجرت نظرات الاعجاب لتتزوج أغنى ملاكي الأراضي الشاسعة .

كانت تقبع وتأمل دورانها ورقصها بين المرايا .. بين آلاف العيون المعجبة التي تزودها بها مراياها الكاذبة ..

طفولتها لم تكن تسمح لها بأن تدرك أكثر من ان أمها تتعذب . لم تستطع أن تفهم يوماً خبيتها بزواجها .. فشلها كلما حاولت امتصاص سراب الاعجاب من صحاري عقم المرايا التي تتمسح بها . لكنها كانت تشعر بمعنى البؤس الحقيقي حينما تتعب أمها من الابتسام والدوران كتعب نحلة استجذت طويلاً زهرة اصطناعية ، فتتهوي إلى الأرض وتنشج بأسلوبها الهمجي الممزق ..

كل ما تذكره بوضوح مرعب الصفاة كروثيا حوار دار بين أمها وأبيها
منذ أعوام طويلة .. تذكر انها كانت تتجه نحو القاعة المرعبة حينما سمرت
أقدامها صرخات أبيها بأمها : لماذا تزوجتني إذن ؟ ما هذا الجنون ؟
— ظننت انك كنت ستمنحني الحياة التي أتمنى ... ومستبتاع لي داراً
في المدينة .. لكنك فلاح جلّف .. لا تعرف كيف يحيا السادة ..
— لم أخدعك منذ البداية .. حدثتك عن أسلوبني في العمل .. عن حبي
لأرضي ورجالي ..

— ظننته أسلوبك في الغزل .. لم تخبرني بأنك ستسجنني
— لم يخطر لي ان اتقاسمك مع الناس ..
— الناس ؟ انهم موجودون بيني وبينك كما لم يكونوا أبداً من قبل ا ..
هنا .. في هذه المرايا .. في عيني .. أبداً سيقفون بيني وبينك ...
— على الأقل ، كفتي عن نوبات جنونك في هذه الغرفة الرهيبة لأجل
ابنتك ..

— أجل ! ابني .. قد لا تكون ابنتك ...
— اخرسي ... أين جزمي ... سأخرج للفلاحة ..
بعد هذا اليوم بمدة قصيرة اختفت أمها . سمعت خادمتين تتهامسان
في المطبخ بأنها جُنّت وتقرر نقلها إلى مكان بعيد وماتت قبل أن تجتاز السيارة
الوادي !

عجيبة هي تلك القاعة . كأنها خزان الماضي الذي ينفجر على غير
ميعاد . يجب أن تبعد هذه الخيالات عن رأسها كي تكون قادرة على تنفيذ
ما اعترمته منذ أسابيع . الليلة فقط ويتهي كل شيء .. الا .. الا إذا
جاء لؤي ..

نسبات الغروب الدافئة تهب على وجهها . منظرة من الشرفة رائع . أبي
مسترخ على مقعده كأن شيئاً لن يحدث الليلة .. كيف سمح لهم بالاحتفال

أمام دارنا الكبيرة ؟ ألا يفهم انه احتفال بتجريدي من التاج الذي اورثني
اياها أمي ؟ ..

أبوها لم يحيتها . ينظر اليها بكثير من الأسف . ينهض . يستند إلى
أفريز الشرفة مولياً لياها ظهره . ستتقم . لماذا لا يخيم المساء بسرعة ومضة
برق ويتم كل شيء فجأة ؟ تهبط درجاً في احد جوانب الشرفة وتسير نحو
الحقول القريبة ويوت الفلاحين الصغيرة الملتفة حول دارهم الكبيرة . كم
تكره ساعة الغروب . يخيل اليها انها لحظة هاربة من عالم القناء تخيم بجوها على
الوادي بينما يختصر النهار . خليط موحش من أنين حيوانات كثيرة يعزق
أذنيها بكأبته الدخانية . المواشي تصرخ كأنما تصلب على زند الضياء الداوي .
يجب ألا أبتعد كثيراً . تلتفت إلى الوداء . القصر يبدو مهزوزاً حزناً كوجه
بريء غسلته حبات دموع ومطر . أفريز شرفته ذو الدوائر السود يلوح لعينيها
كأفواه وحوش حائرة . كعلامات استفهام عبثاً تستجدي من الأفق أي
جواب . الشمس تموت وتحيا بصمت . وعلامات الاستفهام تظل أبداً بلا
جواب .. كيف انتزعوا هذي الحقول مني ؟ .. هذه الاشواك والاطفال
والاشجار والنساء والاحجار كانت إلى عهد قريب لي أنا .. وحلي ..

تحدّق إلى عيون الفلاحين العابرين أو الجالسين أمام دورهم تستجدي
نظرة مهانة أو ضعف فيها .. لم يبق للضعف مكان في الوادي .. هذا ما تقوله
الوجوه المشرقة النظيفة التي تمر فيها .. هذا ما تقوله أكوام السنابل التبرية ..

تظل تتجول . تظأ التراب بيلادة كأنما تحصي ذراته ، كما يتفقد المجرم
الموضع الذي اعتزم أن يدفن سكينه فيه .. ليتها تحرق كل شيء ولا تجبن
هذه المرة ... وعيها اللامجدي انها ستموت في هذا الوادي منسية كأنما يحرك
في نفسها عقارب سوداء .. ستندرها الرياح كأنها لم تكن .. انها عاجزة عن
الهرب من هوة حقارتها التي تشدها إلى أحماقها الصديدية بقدرية عجيبة .
لا صديق لفضلها سوى لوي .. أما إذا رحل ونفذ ما ظل يتشدق به منذ أشهر

فستنفذ هي أيضاً ما عزمت عليه .. وستأخذ معها كل شيء قبل أن ترحل
إلى .. إلى التراب .

تشد نظراتها عن الأرض كأنما تريد أن تهرب بنفسها من فكرة الموت .
تطلقها نحو الجبلين المحيطين بالوادي . الجبلان فكاً كباشة تطبقان على الوادي
وعلى القصر وعلى جانبي رأسها وتضغطان بقسوة عجيبة .. وجه أبيها يطل
على أراجيح سأمها ورتابة أيامها كلما عادت بنظراتها إلى شرفة القصر ،
ورأته واقفاً بوجهه القوي سندية لم تحن رأسها ولولة الرياح . لم تستطع
أن تحدد لوجهه عمراً .. مذ عرفته وهي تراه هكذا .. قوياً عتيقاً كصخور
الجبل .. عاري الأعناق والاشواك كالصبار الذي ينبت عند حدود الأرض
الشاسعة التي كانت أرضهم ..

الفلاحون الذين يمرون بها يحيونها ببراعة تزيد في غيظها . كانت تحبهم
يوم كانت تعتبرهم عبيداً لها . يوم كانوا بعضاً من حجارة شطرنجها وحليها
وأدويتها .. ترى ان بعضهم ما زال يعمل ، يتحدى الشمس التي تهبط
لتسريح .. خادماها القديم لم يشعر بها حيناً وقفت بالقرب منه ترقبه بينما هو
يهوي بفأسه على الأرض التي أضحت أرضه في ضربات هادئة لكنها واثقة
ومنتظمة .. ظهره الذي أحته أحزان أيام سود ، وأثقله استسلام أبله متوارث
لمصير هوامي أضحي الآن منتصباً .. كأنها لم ترو سوطها عشرات المرات من
أخاديد دامية حفرتها فيه .. تتأمله . تتأمله في لحظة صدق هي كل ما يربطها
بالإنسانية .. انه رائع . وديع الملامح حلو القسمات ، أسمر كأنما غسلت
وجهه وزنديه خمرة الشمس . عيناه صافيتان كنبع ، كأغنية الفلاحة التي
سمعتها منذ لحظات تهدد ولدها .. كم هو للذيد أن تهدد امرأة طفلتها .
أغاني أمها كانت مرعبة وثقيلة .. أشهر غانية عرفتها البلاد فشلت في
هدهدة ابنتها ! .. تذكر انها كانت تغني لها في شبه قسم وثني محموم تفوح
منه رائحة دماء حارة وتقول :

— ستكونين يا صغيرتي .. ملكة هذا الوادي .. هديتي لشبابك سوط
علقته على جدار غرفتك .. سيكون لك .. عندما تكبرين وتناله يدك ..
ما الذي يظل يشدها إلى التفكير بأمرها ؟ ما الذي يشدها إلى مراياها
وحكايا ذعرها ؟

قد تلقاها بعد ساعات .. ستحمل لها معها رماد هذه الارض . أكوام
السنابل . السوط . المرايا . مئات الاعين التي تطل منها . هشيم الاطفال ..
ستفجر الحركة في موات الخشب والاشياء الجامدة عندما تحرقها ... ترقبها
تقطع في اللهب . تتلوى وتثن كأنما دببت الحياة فيها .. تفوح رائحة
الاهدا ب والمقل المشوية عند أطلال القصر السود . القصر . ترفع نظراتها
عن الفلاح الذي ما زال يعمل دون أن يتبته لوقفاتها . تنظر إلى القصر .
ترتعد .

تري ان أباهما ما زال مسمرآ إلى افريز الشرفة .. غامضاً .. يطل على
خواطرها الرعيدة كسنديانة لم نحن رأسها ولولة الاعصار .. لماذا يكون
أبوها قوياً هكذا ؟ وهل هو أبوها فعلاً ؟ لم تشعر بذلك قط .. أمها علمتها
أن تكون سيّدة . أن تشرب أدويتها المرة . أن تتقبل شك أبيها فيمن يكون
والدها الحقيقي بتجاهل . ان تتلذذ بذل الفلاحين . تمتص فقرهم وتعاستهم
بجوع علة .. وأمها منحنتها أيضاً يوم ولادتها هدية حملتها لها تذكاراً من
حياتها الماسجة السابقة .. قالوا إن أعضاءها ستتساقط أمام عينيها ذات يوم ،
الواحد تلو الآخر .. قد تسقط يدها على السلم بينا هي تصعد في الليل إلى
غرفتها ، فتعثر بها وتهوي .. قد تسقط أناملها وهي تنحس السوط مسعورة
مشتاقة .. قد تسقط عينيها في الصحن بينا هي تأكل بنهمها المعروف فتمضغها
خطأ .. آه .. لماذا تكون أفكارها مرعبة هكذا ؟ لماذا تزوج أبوها هذه
المرأة بالذات ؟ أبداً لم تحس بأنها تنتمي اليها .. أبداً لم تشعر بأنها تحدا في
لحظة ما .. انها بلا ريب ابنة احدهما فقط ..

تغص عندما تبلغ هذا الحد من التفكير . تظل تحديق إلى توتر عضلات
الفلاح الذي يعمل أمامها ومعوله الحديدي يضرب الأرض كأنما هو مرساة
تبحث عن مستقر لداره وأمنه وأسرته .. أضحى له في كل بيدر مرساة
راسخة .. في كل سنبله شراع اطمئنان .. انه يسند معوله إلى الأرض .
يرفع رأسه ليلتقط أنفاسه لحظة . صدره يعلو ويهبط بجلال فرس عربي
يتبختر .. لقد رآها . يتسم . يحببها بوداعة . لهجته العادية تصفعها . بمد
يده لمصافحتها . شيء عجيب في عينيه دفعها إلى أن تصافحه رغم اشمزازها .
جلده خشن يكاد يدمي أناملها المريضة . ذرات التراب في يديه تلتصق
بمسامها تدمغها بقداسة مجهولة لا مفر منها .. تحاول أن يبدو صوتها طبيعياً
وهي تجيب على أسئلة عن صحتها .. لماذا أعادوها أنسنة يمكن لحادها
السابق أن يسألها عن صحتها .. كانت هي ملكة الوادي ذات السوط الأسود ..
كريمة .. لكن أحداً لا يشك في قوتها ولا يخطر له السؤال عن صحتها ..
العملاق عاد إلى عمله . تلاحظ فجأة انه يقتلع نبتة خضراء ضخمة
واطئة التفت أذرعها الاخطبوطية حول شجيرة صغيرة رفعت رأسها إلى
السما بكثير من الاعتزاز .

— لماذا تقتلعها ؟ إنها خضراء نامية ..

— لا فائدة منها فهي سامة وعقيمة .. ثم انها تتغذى من عروق هذه
الشجيرة التي تكافح جذورها من أجل الماء وتكافح أوراقها من أجل
الضياء ..

— ولكن ..

تصمت مذهولة ، تتأمل برعب فقد رمى بمعوله وأمسك شجيرة
العليق بكلتا يديه وانتزعها من الأرض بينا تطاير التراب كالشرر .. لا
تدري ماذا يخيفها في المشهد . يخيل اليها انه ضخم جداً كعملاق اسطوري
بينما هو يهتف بقسوة وقد التمعت أسنانه البيض : انظري .. هذه الضخامة

كلها .. لكنها بلا جذور .. بلا جذور .. تمتص من عروق الشجيرة الطيبة ..
يضحك . بلا جذور . يلوح بالعليق في يده . شيء غريب يغور في
صدرها . بلا جذور . تريد أن تمتد يدها وتنتزعها منه . يدها تستسقط .
قالوا انها مريضة . يدها تستسقط وتتعثّر بها . بلا جذور . أعضاؤها بلا
جذور .. ماذا يشدها إلى هذه النبتة ؟ ماذا يغيظها منه ؟ يلوح بها أمام وجهها .
لم تعد تسمع شيئاً . آه يده كم هي كبيرة .. في حركاتها ثورة زنجية .. بلا
جذور .

لو تهرب . لو ان ساقها لا تسقطان . لو تحملانها ريثما تحرق كل شيء .
انها الظلمة قد خيمت . لو تبكي .

تنطلق نحو القصر راكضة . العليق يلتف حول عنقها . القبضة الزنجية
تضغط عليه . تركض . تتحسس رقبتها . يا لأوهامها . كيف أخاف ذلك
الوغد الذي طالما روى سوطي ؟ مستقيم . تصل إلى القصر . تصعد السلم .
أبوها ما زال مسترخياً . وانت أيضاً يجب أن تموت معهم .. الأشياء تشدك
اليهم أكثر مما تشدني . السنديانة ستلتهب الليلة . ليتني لا أجبن هذه المرة ..
تنادي خادمتها :

— هل وصل لؤي ؟

— لم يحضر يا سيدتي .

ممزقة ، بسمة السخرية المرتسمة بين شفتي ايها ممزقة . لماذا يسخر ؟
يفتح شفثيه ليتكلم : لؤي رحل ! ..

— رحل ؟ لا أصدق .. إلى أين ؟

— رحل إلى المدينة .. قرر أن ينتسب إلى إحدى المدارس ! ..

— هذا غير صحيح ..

— وأرسل لك هذه الهدية ..

— ماذا ؟ .. سوط ! .. أيسخر مني هذا المنافق ؟ ..

— يبدو انه أدرك ان القمر لا يطارد بشبكة صيد ، أو سوط مثلاً ،
لماذا لا تدرسين أنت أيضاً وتفعلين مثله ؟

تدرس ا .. بماذا ؟ بأدويتها ؟ بسأماها وذعرها وضعفها ؟ بعينها التي
قد تسقط ذات ليلة بين سطور كتابها ، ويدها التي قد تتحلل قبل أن تلتقطها
بها لتعيدها إلى مكانها... انها ملكة الوادي .. لا تحسن إلا استعمال سوطها ..
لومي هرب .. أنا بلا جنود .. اعتدت على أن أكون بلا جنود .. لن
أجروء على مواجهة الشمس .. في صدرها بركان . حمم تتناثر . الحقد .
الكراهية . الانتقام .. الفلاحون يتجمعون أمام الدار منشدين وقد أشعلوا
المشاعل والفوانيس المتوهجة . السنابل تلتمع . تميس في نسيم ليالي الصيف .
لماذا يطردون الظلمة ؟ وجه أبيها ينبسط عن ابتسامة ما .. بعد لحظات ستنسل
لتحرق كل شيء .. لم تعد تخاف شيئاً ..

أبوها لم يتحرك .. انهم أعداؤك يا أبي .. لقد سلبونا أراضينا وحقوقنا ..
أمي كانت عاقلة يا أبي .. جبارة .. للمرة الأولى ستفعل شيئاً تعتقد أن
أباها يتناه . دمة في عيني أبيها . أمطار العالم كله ما ملأت التراب بنشوة
كما لذت لها تلك الدمة .. إذن يكرههم مثلها .. هو الآخر بلا جنود ..
الآن ستحرق كل شيء .. ستلهب سوطها وتدسه في البيادر .. ستشعل
النيران في نفسها وتتلوى بين السنابل .. أبوها ينهض .. إلى أين ؟ لا يجيب ..
يسير منتصباً في الشرفة نحو الدرج .. الفلاحون يرقصون (الدبكة) في
حلقات .. الفلاحات ينشدن ويدرن كجنيات الصيف .. يضثن كيعاسيب
المروج .. الاطفال يهللون .. رائحة التراب عجيبة كأن ذراته تحرق وتضطرب
وتسجد .. أبوها يهبط السلم . انهم يهللون .. إلى أين يذهب ؟ هل ينوي
طردهم ؟ هل يريد احراق كل شيء بيديه .. يحيطون به كالطوفان ، يعانق
أقربهم . انه فلاح جلف . يعانق بحرارة . يهللون . انه يكي فرحاً . يضمونه
إلى صدورهم . يدورون حوله .. يرقص كصغير وجد طفولته الضائعة ..

خادمها يهتف وفي يده شيء أخضر .. ماذا ؟ .. شجرة العليق . بلا جذور .
يضحكون . أبوها يغني معهم . شجرة العليق رمى بها .. تحت الاقدام .. بلا
جذور .. يمزقونها .. آه .. رأسي يؤلني .. لماذا يدوسونها .. يدي تكاد
تسقط .. ساقاي تنحلان .. لماذا يدوسونها .. بلا جذور .. غرباء .. كل
ما يضحك غريب عن عالمها . الاناشيد التي تفيض صحة وشباباً غريبة عن
عالمها . أين هي ؟ لا تدري .. ماذا يحدث حولها .. لماذا تتطاير السنايل في
الجو .. تمزق خديها .. تهرب من الشرقة إلى الداخل .. غرفة المرايات
تستقبلها .. ملايين الاعين تطل عليها صفراً مذعورة ذات خطوط حمراء
ناتئة .. العليق ينمو في جوانبها ويتسلل نحوها كأخطبوط مرعب .. بجذورها
القصيرة اللدنية تزحف على بلاط الغرفة . لا تستطيع أن تدافع عن نفسها
لأن يدها ستسقط . السوط .. أين السوط ؟ .. ستحضره ..

المهرجان أمام القصر كان رائعاً .. احتضنوا رجلهم الفرح بهم .. كان
له في كل عملاق ابن ، ثم ظهورهم .. ثم آثار سوط ابنته . سجد للقوة
لأنه قوي . لأنه ليس بحاجة إلى ضعفهم .. لأنه عمل معهم ذات مرة بساعده .
المهرجان ظل مستمراً لأن أحداً لم يسمع صرخة اللعنة التي أطلقتها
إحدى الخادومات عندما دخلت قاعة المرايا المرعبة ووجدت أن سيدتها كانت
ترتدي ثوباً حريراً أحمر عتيق التصميم .. وتلور بين المرايا مجنونة لاهثة
تضربها بسوطها والزبد يفور من فمها كما فعلت أمها ذات مرة .. قبل أن
تختفي من الوادي .. إلى الأبد ..

هاربة من منبع الشمس

ما زلت في أعماقي ..

تمسح الطين عن جسدي بأهدائك !

ما زلت في أعماقي ...

النجوم تفور من منابت شعرك فوق الجبين الاسمر وتنهمر فوق صدرك
وهديرها أبداً يناديني .. يهتف باسمي ذائباً ملهوقاً ...

وأسرع في مشيتي ، أشد كسبي إلى معطفي ، وتظل أنت تتمطى في
أعماقي ، والشتاء يتأوه في قطرات المطر التي تلتق وجهي .. وتظل أنت تهتف
باسمي ، والرياح تعول وتدور حول الاذرع الرمادية لاشجار متعبة تسندها
ظلالها إلى جانبي الطريق .. والرعد يتدفق في اذني كصرخات دامية التمزق
لامرأة ضائعة في صحاري شاسعة .

ما زلت في أعماقي تتمطى !

وأنا أنزلق فوق ظلمة الشارع ، ويخيل إليّ أن برك الماء المتجمدة قد
ابتلعت أنوار الجامعة التي خرجت منها قبل لحظات ..

وألقت ورائي وكأنني أريد أن أتحقق من أنها فعلاً هناك .. المكتبة ،
والمقاعد الخشبية في الحديقة ، والنادي المزدحم حيث التقيت زرقه حينيك
الضالتين أول مرة ، يوم جئت تبحث عن أختك ، زميلتي في الصف ،
وتطلعت أنا لأشاركك التفتيش عنها ... وأحسنا بسعادة مبهمة ونحن ندور
معاً من مدرج إلى مدرج ومن باحة إلى باحة فلا نجدتها .. وتبادل الحديث
بعفوية للذبة كأي صديقين قديمين ..

كم كانت أختك رائعة وكريمة ذلك اليوم ! .. لقد اختفت .. لم نجدها بالرغم من الساعة التي قضيناها منتبئين ، والتي انتقل البحث في دقائقها الاخيرة من القاعات إلى وجهينا ..

وشدنتني إلى عينيك كآبة حنون ، مغرية الدفء كلهيب موقد يلوح لضائع بين الثلوج من وراء زجاج نافذة ... تنهدت بارتياح لما لم نجدها ، وعرضت عليّ تناول كأس من الليمون في النادي ريثما نستريح ونعاود البحث من جديد .. وجلست أمامك .. أشرب من ملامح وجهك وأخزنها في أعماقي بحرص بينما أنت تحدثني ببساطة وانطلاق عن رتبة ساعاتك .. عن جلستك البلهاء كل أمسية وراء زجاج المقهى وتشابه أيامك .. كيف أن السبت يمكن أن يكون ثلاثاء أو اربعاء بالنسبة اليك .. الاشياء التي فقدت طعمها ولونها والايام التي أضاعت مدلولها ..

وظللت أعب من كأسى وفرحة جديدة تعربد فوق المنضدة وتثر شعرها اشعاعات سعادة في كل ما حولنا .. حتى في نظرات زملائي المرتابة التي بدأت تستقل من وجهي إلى وجهك بحدة وفضول ..

قلت لك ضاحكة لأخفي بعض ارتباكى : « انهم يصدقون الينا وكأننا ... حبيبان ! » والتفتت نظراتنا بصورة غير عادية لما نطق بكلمتي الأخيرة « حبيبان » ... لا أدري لماذا ارتعش صوتي مع انتفاضة أهدابك ، بينما رددت أنت عبارتي شبه حالم وكان حجب الغيب قد انتهكت أمام عينيك : « كأننا حبيبان » . ١

وظللت أتأملك مفتونة نشوى ، وكأنني اكتشف في أعماق عينيك مغارة مسحورة ياقوتية الجدران ، تومض كنوزها المكدسة قوس قزح وديع الحلوى ، يترسب في حواسي ، ويغمرها بخدر لذيذ .. لا يعكره سوى همسات الزملاء الذين ركزوا اهتمامهم على التيارات اللامرئية الهادرة بين مقلي وشفيتك .. لذا لم أتردد في الخروج معك حينما اقترحت عليّ بصوت

مبهم النبرات أن نستمر في « البحث عن اختك » خارج الجامعة !
وارتميت شبه حاملة في زرقه سيارتك لنضيق معاً في شوارع المدينة التي
لم تبد كثيفة كعادتها .. وأدركت انك بدأت تتسلل إلى أعماقي ..

ولما جئت مع مساء اليوم التالي ، عرفت انك لم تأت باحثاً عن أختك ..
وأسندت وحتني إلى سأمك وانطلقنا بها إلى الغوطة حيث وأدناها قرب خيمة
ناطور أغرتنا نيرانه بالاقتراب منه والقاء التحية عليه .. وجلست ترقب
رقصة الوميض على جانب وجهي ، بينما أنا أعبّ القهوة العربية ، والقمر
يستند إلى جانب الخيمة حيناً ، وتختطفه ارجوحة الرياح الغامية حيناً آخر ...
ما زلت في أعماقي ! ! .. تضحك زرقه عينيك لكأني . المنحنى قد
غيب الجامعة عن أنظاري .. والوحشة ترتل أناث القراق في دربي .. وأنا
أسير إلى غرفتي الباردة واهدي ..

أمواج المساء لم تعد تنحسر عن ضياء عينيك .

بحاري الكثيفة لم تعد ترقب رنين مرساتك الذهبية في ابعادها السحيقة ..
أسير ... وأتعث وحيدة كطفل جائع في معبد مهجور ، ما زالت رائحة دم
حار تسيح من جدران المرعبة ... وانت ... ما زلت في أعماقي ! تسمع الطين
عن جسدي بأهدابك .. وصوتك الذائب ، صوتك الملون ما زال يعربد في
عروقي مبتلاً بالمطر .. بمطر دافئ كان يغسل نوافذ سيارتك « الهائمة في
غوطة دمشق » وتمسك قطراته بالزجاج ، وتحقق بفضول إلى الداخل ..
إلى حيث الدفء .. إلى حيث أنا وأنت ذرتا رمل جمعتها العاصفة في شاطئ
صخري .. وتظل حبات المطر تتزلق ببطء منصة لهساتنا ...

— اقتربي مني يا رندة .. اسكبي الألوان في الأشياء التي أضحت باهتة
كالأشباح .. اضرمي النيران في وحتني ففي نفسي جوع إلى النور .. ضمني
وحدتك وتشردك إلى لهفتي وفراغي ..

وأقرب منك .. ألتصق بذراعك الايمن وأرمي بأثقال رأسي إلى
كتفك :

— مذ حضرت من بلدتي الصغيرة وانتسبت إلى الجامعة ومدينتكم
وحش يخيفني ..

— ماذا يخيفك فيها يا حلوتي ؟

— لكل شيء طابع لا انساني هنا .. اسمع ضجيجاً وعويلًا لا أرى
مصدره .. تنبع من الزوايا المظلمة صرخات بلا شفاء .. تنفجر من شقوق
احجار الشوارع دماء بلا جراح .. الزيف يلون كل شيء بكآبة باهتة صفراء ..
وفجأة توقف سيارتك وتلتفت إليّ وكأنما روعتك حرقتي وأثارت
حنانك .. وتتجمع قطرات المطر بفضول حول النوافذ كلها وتظل تنصت
بينما أنا أهدي شبه باكية :

— كنت أخرج من الجامعة مساءً ، أدور في الشوارع وأبحث عبثاً
عن ظلي . واكتشفت ان كل شيء في مدينتكم مزيف ، حتى النور الابيض
الفاجر محروم من الظلال التي تكسبه مسحة حزن انساني مستكين ...
— يا عجرتي الصغيرة الضائعة ..

— كنت أصرخ بوحشية كلما كفّني صمت غرفتي لعليّ أنس بالصدى ..
ولكن الجدران بخيلة حتى بالصدى ! ! .. وأضربها بقبضتي .. أحاول أن
أغرس اظفاري في أحجارها الصلدة .. وانشج .. وعبثاً انتظر أي وتد
حقيقي في عذمي المريع .. لا ظل .. لا صدى .. لا شيء .. لا شيء حتى
وجدتك ..

وتزداد اقتراباً مني .. ويخيل إليّ انك تريد أن تلتقط بشفتيك كلماتي
المتعثرة فوق عنقي وذقني قبل أن تتناثر في فضاء السيارة الدافئ ..

— كنت أتشرد كل ليلة في دربي الفقير .. أحس بملايين الأيدي
الخفية تضغط على عنقي .. تسمرني في الشوارع عارية تحت أسياخ المطر

الباردة .. تحملني من شعري بقسوة وتدلي بي في البرك الموحلة .. وتظل
تنقلني بين الآبار المتجمدة وأنخبط في الهواء ، لا أقبض إلا على حزم الرياح ،
لا أقبض على أي شيء !

لا شيء حتى وجدتك .. ولن أفقدك لأي سبب في العالم ..
وأشدد قبضتي على ذراعك بينما تتحسس يدك ظهري وتبعثان رعدة
دافئة في جسدي المنهك .. وتهتف بي :
— انك ترعينني بهذه الأفكار ! ..
— بل انها ترعينني أنا بالذات .. لم أجرو قط على الاعتراف بها لنفسي
وأنا وحيدة .. أما الآن .. وأنا أمام صدرك ..
وقاطعتني هامساً بحرارة :

— بل انت تغفين في صدري .. تبعثين في الدم الذي يتدفق في كل
ذرة من كياني ..

ويسعدني دفء أهدائك التي تمسح الطين عن جسدي وأنا أهذي :
— كم تعثرت في برك الطين ولطختني الأوحال .. وأنا أحس ان
قطرات المطر مديبة الجوانب وخآزة الخواف .. تنغرس في خدي بينما بردها
الكاوي يلهب عذابي ..
— والآن يا رندة ؟ ..

— تبرز شمس في كل قطرة مطر ...
وأشدك إلى صدري بكل قواي .. أفتتلك ذرات ، وأسحقك ذرات ،
وتنسل كل ذرة من إحدى مسامي إلى أعماقي .. إلى حيث ينضم بعضها إلى
البعض الآخر من جديد ... واحس انك حي تعربد في الحنايا والضلوع ..
وتهتف بنشوة :

— أيتها العجربة الهاربة من منابع الشمس .. ألا ترين ان الصقيع
أدماني ؟ ؟ ..

وأحدثق إلى الشعيرات البيض التي تسَلَّت إلى شعرك ، ونخيل إليّ ان
ثلجاً لثيماً يتمسك بها .. وأحاول اذابته بشفتي الملتهيتين وأنا أَلثمها شعرة
إثر شعرة ...

وتبعدني عنك ضاحكاً ، وتمسك وجهي بكلتا يديك ، فتألق حلقة
ذهبية في بنصر يدك اليسرى طالما رأيتها من قبل ...
وأسألك بكثير من اللامبالاة :

— منذ متى تزوجت ؟

— منذ سبع سنوات ..

ماذا يهمني سواء كنت متزوجاً أم لا ؟؟ .. أنا وحيدة .. وحيدة ..
يدي المتخبطة في فراغ الدعر لن تسأل اليد التي تعلق بها : كم عمرها ؟
لن كانت من قبل .. حسبي انها يد انسان .. حسبي انها يدك يا أغلى غال ..
ونخيل إليّ ان ذرات الظلام تنفجر حول شفتي ، وان قطرات المطر
تقفز مذعورة عن النافذة وانا أسألك :

— هل لك أولاد ؟؟

— صبي وبنت !!

حاولت أن أرسم في ظلمة السيارة صورة لصبي وبنت يتعلقان بشبابك
كلما دخلت دارك .. وزوجة تكشف لك طبق الطعام على المائدة ، ويتصاعد
البخار فيغطي وجهها بينما تحوط يداك نحرها كأبي زوج .. لم أستطع ..
حاولت أن أنجس من نفسي أن أتذكر ما تعلمته في بلدتي المنعزلة .. لم أستطع ..
خيل إليّ أن جميع أطفال العالم قد ذهبوا في حلقات مئاسكة الايدي إلى
كوكب سحيق البعد .. وان الطعام بارد على منضدتك .. وان زوجك لا
تغري بالتقيل .. وان يدك لم تخلقا إلا لتضاني هكذا هكذا
..... وتظل قطرات المطر تتمسح بزجاجنا منصبة .. وأبخره الدفء
تتكاثف في الداخل حتى لا تعود القطرات الفضولية ترى شيئاً .. وحتى لا

تعود تسمع شيئاً بعد أن تخفت همساتنا ، وتسبحيل إلى قبل مكتومة ..
فتهوي إلى التراب وتمتزج به في عناق وديع الاستسلام ..

..... وتنفض عن عشنا الأزرق ذرات المطر ونحن ننطلق من جديد إلى
أعماق الغوطة ، إلى حيث تلوح خيمة الناطور ذي الوجه الباش والكلب
الابيض الودود ... وتوقف هدير المحرك وأنت تسألني ككل ليلة :

— ما رأيك بفنجان دافئ من القهوة ؟

ويتلوى شبابي طرباً .. وأجيبك بفتح باب السيارة والقفز منها غير
عابئة بالمطر .. وتركض يدي في يدك إلى الخيمة ونجلس أمام نيران الناطور
طفلين في الغاب هرباً من مذبج مرعب فلما فيه قربانين لاله أحمر العينين ..
وتتعانق نظراتنا بين أحضان اللهب الذي يزداد تأججاً .. والناطور يرقبنا
ببهجة فطرية طالما افتقدتها في أعين العابرين من أهل المدينة . حتى إذا ما
سرى في عروقنا دفء قهوته العربية ، عدنا إلى عشنا الأزرق حيث تلتقط
بشفتيك حبات المطر العالقة بأهدابي .. ويغينا المنحنى الرمادي .. لماذا
استعيد هذا كله الليلة ما دمت قد مضيت ؟ ..

أنا أعرف اننا لن نعود نلّم الحنين .. لن نشرب القهوة العربية عند
خيمة القمر .. لن تلتقط بشفتيك حبات المطر عن أهدابي ..
مضيت .. دون أن نتشاجر مرة واحدة .. دون أن نختلف في رأي ..
كان كل شيء على حاله يوم افتراقنا ..

الطريق يتزلق بهدوء تحت عجلات عشنا الأزرق .. والاطمئنان يسبل
جفنيه النديين على قلوبنا ، وأنا أدفن قبلي بين عنقك وياقة معطفك ، وأغمغم
ببساطة : لم تعد المدينة ترعيني منذ تمددت في زرقه عينيك .. ستكون لي
أبدأ .. أنت والمطر ، والقهوة عند خيمة القمر ..

— نكاد نصل يا رندة ، ارتدي معطفك . لا أريد أن يصيبك البرد .
وانهض على ركبتي ، ووجهي متجه نحو المقعد الخلفي كي التقط معطفي

الذي رميته هناك كعادتي كل ليلة .. وفجأة .. أراها هناك ! ..
فردة حذاء طفل تبسم في وجهي بسخرية ممزقة ! .. فردة حذاء طفل
منسية سقطت من قدم ابنك بينما زوجتك تحمله وهي تهبط به من سيارتكما ..
أجمد ! .. يغمرني خجل مذعور مفاجيء ...
وكعادتك تظل قابضاً على المقود بيدك اليسرى بينما تحوط خصري باليمنى
وتجذبي إلى صدرك ضاحكاً مداعباً .. لا أغمر وجهك بقبلي اللاهثة ..
أظل زائفة التعبير مجمدة النظرات إلى الوراء ، حيث ترمي ببصرك متسائلاً ..
وتراها كما أراها .. لا شيء .. مجرد فردة حذاء طفل تبسم بسخرية ممزقة !! ..
وأدرك أنك تفهمني تماماً .. لا حاجة بي إلى الكلام ما دمت تسمع
هذيان صمتي المحموم ..
توقف سيارتك ويخيل إليّ أن صوتك انبعث متعباً هدته الليالي وأنت
تقول :

— لقد وصلنا .. هل أنتظر غداً كالعادة ؟
وأجيبك ونظراتي مشدودة إلى فردة حذاء طفلك الساخرة :
— لا .. لم يعد ذلك ممكناً .. أليس كذلك ؟ ..
كان هذا آخر نقاش دار بيني وبينك .. لكنني أحسست ساعتئذ أن
الرياح قد حطمت نوافذ عشنا إلى الأبد .. ونظرت إلى صدرك ، إلى حيث
تسحقني كل ليلة مودعاً ، وتخيل إليّ أن جميع أطفال العالم عادوا منشدين
من كهوفهم السحيقة ، وتبعثروا على صدرك ، بأطرافهم الشفافة وأجسادهم
المهشة وروؤوسهم الدقيقة .. يكفي أن أحاول لمسهم حتى يتناثروا أشلاء بريئة
بين أصابعي الدموية ومخالب المرعبة .. وأردت أن تضميني مودعاً لكنني
هربت .. هل كنت تريد أن نسحق صرخاتهم بين جسدنا ؟؟؟ .. ان نلطح
أكتافنا وأذرعنا بطفولتهم الشفافة الدقيقة ؟ أما يكفيننا عذابنا ؟؟ ..
ومددت يدي أضافحك ، وكان الصمت يهدي ، وكانت أعيننا تنضج

دموعها إلى الداخل .. إلى الأعماق .. وكانت ثورة شعري المبعثر تبكيك ..
وكان عذابني ينشج بسكون ..

واختلطت معطفي وأنا أتحاشى النظر إلى فردة حذاء الطفل المنسية التي
ظلت تبسم بوداعة دافئة حينما هبطت من العرش الكسيح .. إلى الأبد ..

ولما ضمني برد غرفتي ، رأيتك بين أشباح السقف تدخل دارك الدافئة ..
أطفالك يتمسحون بشبابك وأنت تنحني إلى الأرض لتدخل في قدم ابنك
فردة حذائه الضائعة بحنان دقيق .. وتقبل زوجتك سميئة متلحرجة ..
فتقبل خديها اللذين تفوح منها رائحة طعام شهبي ..

ورأيتكم جميعاً بوضوح .. وأدركت انني لم أعد أستطيع انتزاعك من
إطارك الحقيقي لأطير بك إلى مغاوري الفضية في جبال القمر .. لم أعد
أستطيع .. ولكنك ما زلت في أعماقي !

تتمطى وتحذني وأنا أخرج من الجامعة كل ليلة .. يتلغني بحر الظلام
الكثيب ونحملني أمواجه إلى غرفتي الباردة . أدرس أحياناً ، وأكتب
الرسائل المطولة إلى أمي وأبي .. وأنت تنزل بين الكلمات .. تستلقي على
الحروف وتقفز فوق النقاط وتهمس بين السطور .. وانت تتسلق الصفحات
وتظل زرقة عينيك تبسم ..

ما زلت في أعماقي .. تمسح الطين عن جسدي بأهدابك !

وأنا أسير وقد اختفت الجامعة تماماً .. البرق يلتمع ويضيء البقعة التي
كنت تربض عندها بسيارتك منتظراً أن أصل إلى الأرض البوار ..

أسير بحذر وأشد كتبي إلى صدري والمطر يتسلل إلى جسدي .. وأنت
ما زلت في أعماقي تهمس « اقتربي يا رنلة ، في نفسي جوع إلى فجور
النور » .. الدموع تنفجر في عيني وتضيع مع المطر المتدفق .. موضع عجلاتك
الراحلة يهذي .. ينهش من قلبي وأنا أمر وامزق الذكريات مع ضربات
حذائي .. وتصرخ يدي .. تريد أن تمتد لتفتح الباب كما كانت تفعل ..

وتصرخ قدماي .. تريدان الصعود إلى دفنك الملون .. ويصرخ جسدي حيث
طحتك ذرات تسلت من مسامي إلى أعماقي وتتلوى نظراتي .. تحن إلى
التمسح بالشلال الأزرق الهادر من العينين .. ويظل صوتك يهمس من أغوار
سحيفة مرعبة : « غجرتي احاربة من منبع الشمس ، ألا ترين ان الصقيع
أدماني ؟ » وأحس أنني ظمأى .. ظمأى لشفتيك تجمعان المطر عن أهداي ..
ظمأى لخيمة القمر وقدح القهوة الدافئ وضحكاتنا الغجرية في كبد الليالي ..
أنا ظمأى إليك وانت تتمطى في أعماقي ببساطة مرهقة !

غربان القدر تنهش عيني الناطور قرب خيمته الممزقة .. رياح الشتاء
تدرو رماد نيرانه .. والامطار تغسل الحمرة عن جمراته حيث ترسب
ليالي العذاب سوداء فاحمة .. الرمال افاع تزحف لتغطي كل شيء ..
الكلب يعوي في الخواء منتحبا . وأنا هنا .. وقد عادت الايدي الخفية تضغط
على عنقي .. تسمرنني في الشارع عارية تحت أسياخ المطر .. تحملني من
شعري بقسوة وتدلي بي في البرك الموحلة والآبار المتجمدة .. وأشد وشاحي
إلى رأسي .. أشده .. وأظل أشعر بأن الايدي تجذبني من شعري .. وأدضي
إلى غرفتي .. لا أحلم بأكثر من جدران لا تبخل على وحشي بصدى ..

الهاوية

آلة بلهاء كنت وراء منضدتي الحديدية ... تعاطف مبهم بيبي وبين أنين
الآلة الكاتبة التي تضرب عليها زميلتي سلوى ... يدي اليسرى تتحسس
شعري الطويل الخشن بينما تتحرك اليمنى على الورق وتكتب : « الشعر
القصير يا سيدتي موضحة هذا الشتاء ، إذا أردت أن تكوني قبلة الانظار » ،
يتوقف صراخ الآلة الكاتبة فجأة فأنقطع عن الكتابة بحركة غير شعورية .
ارفع إلى زميلتي عينين يرقص فيهما سؤال حائر : « ماذا حدث ؟ »

نقول بلهفة : « انها التاسعة .. انتهى الدوام » تفتح حقيبتها . تستل منها
مرآة ومشطاً . تسرح شعرها ... انتفض جسدي بعنف حينما رأيت المرأة ..
تشاغلت عنها باتمام ما كنت أكتب .. غداً تصدر المجلة ، يجب أن أنهي
زاوية المجتمع الراقي .. عدت أكتب بينما أعماقي تتمزق في حشيرة وحشية
الصرير .. نانا شربت الشاي في محل انطون وكانت ترتدي ثوباً من الدانتيل
المطرز بـ ... صوت حاد يداهمني . أتوقف عن الكتابة . نظرة واحدة .
أدرك انه صوت تحطم المرأة التي سقطت من يد سلوى . لفرط اضطرابها
وتسرعها .. عبثاً تحاول الانحناء لالتقاط القطع المبعثرة إذ ان ثوبها ضيق
يكاد لا يسمح لها بالمشي .. عيناها تفصحان بجلاء ان صديقها يتسكع الآن
أمام باب المكتب منتظراً خروجها بينما هي في حيرتها وقلقها . صوت خشن
يتسلل من جوفي : « اذهبي انت .. سأتولى أنا جمع الحطام » تنفض عليّ
قبل أن تندفع راكمضة خارج الغرفة وتقبل خلدي بجرأة وبساعة أذهلني ...
خرجت وبقيت وحدي أتحسس مكان قبلتها بينما يتمطى جرح في أعماقي

ويستيقظ .. لم يقبلني أحد منذ زمن طويل، منذ خلعت الحلقة الذهبية من اصبعي ووضعتها في يد نبيل بائسة مهزومة ..

أنخي على الأرض لأجمع حطام مرآة سلوى .. في إحدى قطعها المديبة الأطراف - على الرغم مني - جزء من وجهي .. انتفض وأنا أتمتم : آه كم أصبحت قبيحة .. راحة نسبية تغمرني وأنا أرمي ببقايا المرأة من النافذة المطلة على الشارع الكبير بينما تجمد نظراتي على أنوار الاعلانات التي تضيء وتنطفئ ثم تضيء في تكرار ممل يبحث على الغثيان ..

الشارع يبدو سحيقاً مغرقاً في البعد .. تتحرك فيه قطعان ضالة تسير بسرعة وكأنها تصر على استفاد كل ثانية في ضياع تام .. إلى أين يذهبون ؟ ماذا في الدروب سوى الخيبة والعبث ؟ لماذا يتدافعون ؟ ماذا في الدروب غير الصقيع والوحدة .. إلى أين .. لنبش الرمال عن مدارات الشمس ونهب كهوف القمر .. وماذا بعد ؟ لا شيء .. لا شيء سوى غرورنا المغرق في الوحشة وكبرياتنا الجوفاء المتأسكة الملطخة باللوعة ..

أغلق النافذة . أعود إلى مكاني وراء المنضدة .. أكتب الآن عن افتتاح نادي محبي التشاتشا .. إنه خبر مثير سيسر له المدير .. أصف الآن حذاء ومحفظة السيدة رئيسة النادي . لن أذكر شيئاً عن ضيقها حينما شوهدت الحفلة بمنظر الأطفال الذين تجمعوا حول سور الحديقة حيث نثرت الموائد والأطعمة يرهقون الآكلين بعيون تعول بالجوع والفضول فيها .. لن أذكر هذا كله فأنا بحاجة إلى عملي . الاشتزاز يتلوى في ضلوعي .. لم أعد أستطيع الكتابة .. أخرج من المكتب وانتظر بشوق قدوم المصعد لأهبط به .. لقد وصل .. أدخل . أنا هنا وحيدة في علبة كالتابوت الخشبي . لا عين تشمئز لرأى دماستي .. وحدي أنا وجدران البناء الراكضة نحو الأعلى .. أشعر بلذة مبهمة وأنا أهوي في التابوت العجيب .. يتبدد ارتياحي حينما أهوي بنظراتي على مرآة في أحد جوانب المصعد ورأيت نظرات ارنب مذعور تطل من عيني ..

آه .. ما أقبح وجهي .. الشق الطويل الغائر في الخلد الأيمن واللحم الممزق
المتماسك قرب ذفتي والمعجون بما كان يدعى ثفتي السفلى .. أنفي المخطم
وجيبي السلوخ .

لماذا توقف المصعد هكذا سريعاً ؟ ليتني لا أفتح بابه أبداً .. ليتني أهوي
في هذا التابوت إلى أعماق اللحيم حيث يكون كل شيء أقبح مني ..
أفتح باب المصعد ببطء ينطق بالاسى .. يبتلعني الشارع المزدحم .. يمر
بي شاب وسيم ويشيح بوجهه عني بتقزز مدمر .. كأني لست من البشر .
تكاد دمة تجول في عيني وتشوه مظهري . يجب أن أكون قاسية قسوة القبح
في وجهي ..

الوحدة تعمل في كياني .. الظلام يتفجر من صدري ، ينسكب في
دربي ويغمره بصقيع رمادي .. الوحشة تتمطى في أحداقي .. السأم ذئب
أصفر يعوي في دمي .. إنني أضيع في الشوارع النحاسية المضيئة حيث يتحرك
كل شيء بسرعة مجنونة .. الناس .. الحافلات الكهربائية والاعلانات الملونة
التي تنسكب في بردي المنسل بهلواء .. أذناي تمتصان ضجيج العالم كله ..
الحركة المسعورة تلطم رأسي . الأصوات المجنونة تنسل في عروقي وتتفجر
لوعة من مسامي وحرقة من شعري وظافري وضلوعي .. إنني أضيع ..
أتلاشى .. أتلاشى في الصخب الابله ..

دوامة المدينة اللامبالية تسحقني .. العيون الوحازة تنزلق على وجهي
بذعر .. يخيّل إليّ أن جميع أضواء سيارات المدينة تسلط عليّ عمداً .. لتزيد
آثار جراحه وضوحاً وتكشف دماستي وقحة بعريها ..

ما زلت أتخبط في الدروب .. ها هو ذا مقر نبيل يلوح في آخر المنحنى
البعيد .. لا ريب في أن بابه مفتوح وكل شيء معدّ لاستقبال زوار معرض
تماثيله .. كم سرت في هذا الدروب صبية حسناء .. يتأوه الشبان لمراى سفوح
الجليد الملتهبة الغائبة في حنايا ثوبها الشفاف .. لوجهها الطفولي والنظرة

المعطاف .. كم بجثته بعد الغروب قطرة تتنفض جوى وتذوب نحنا .. كنت أبجده بانتظاري عالماً من شوق مشبوب يغيني في الحنايا ويكاد يسحقني بين الضلوع .. كان يعبد تقاطيعي المتناسقة الخدابة ... يقضي الساعات الحارة ونظراته تتحسس شفقي والغازتين في خدي ثم تلف حول رقبي وتنحدر متسللة في رحلة عطرية لتنهب وتلم ما حلل الثوب سخى العطاء لها .. ثم أجلس أمامه بينما أنامله المبدعة تبعثني حية في كتلة من طين وتنحت خلود جمالي في تمثال صغير لرأسي الصغير .. ظل عشرة أيام ينحت حتى جاءت اللحظة التي صرخ فيها بحرارة مجنونة : بربك أنطق أيها التمثال .. عشرة أيام ... لهف روحي .. لينها كانت دهوراً .. كانت لحظة خالدة .. ساعة صافحته مودعة بينما كانت كل جارحة من بجوارحي تضحك وتقول : « أي وداع يا كاذبة ! هلمي بداية اللقاء » .. استبقي يدي الصغيرة بين يديه .. نظرت في عينيه متجاهلة متسائلة وأحسست ان كيانه يتسلق نظراتي ويتسرب إلى داخلي .. رعشة دافئة متجاهلة تبعثرت في كل جزء من جسدي .. لذة مبهمة تأوهت في أضلعي وشعري وأظافري وجلدي وكادت تقفز من مسامي .. جلديني إلى صدره وشفثاه تهمسان . ستكونين لي يا حسناي الصغيرة ، سنعلن خطبتنا الليلة ..

هلمي يزداد كلما اقتربت من الرسم ببطء ذليل . اتشاغل عن منظر فردوسي المفقود بالتحديق إلى المارة . في أقصى الرصيف يسير صبي كواء يحمل ثوباً فاخراً .. انه يتمسح بالجدوان الرمادية كأنما يريد أن يخفي قميصه الممزق . في مشيته انطواء مبهم يجذبني اليه .. بحركة غير شعورية أتجه نحوه لأسير بقربه .. تترنح نظراته مرتاعة على خدي . يركض مبتعداً وفي عينيه ذعر بريء شديد القسوة بعفويته وصراحته . اللعبر نفسه الذي ارتسم في عيني نبيل حينما جلس أمامي في المستشفى بعد أن مضى شهر على خطبتنا يرقب ما بقي من وجهي بعد أن رفعت الضبادات والأربطة عنه .. الحيرة .. والاشمئزاز والأسى نفسها . لم أنس أبداً تلك اللحظة حينما انسحبت يده التي كانت تضم

يدي وتسللت هاربة .. أدركت يومئذ ان كل ما يربطنا أضحى مجرد حلقة
ذهبية ضيقة تحيط بإحدى أصابع يده اليمنى .. كانت لحظة دامية التمزق
مفجعة الوحشية حينما انتزع الخاتم الذهبي من اصبعه كالمنوم وانطلق هارباً
بدون أية كلمة ..

لم أكن بحاجة إلى مرآة لادرك حقيقة ما حدث ، ومضة نارية لمست
مداركي ورسمت فوق وجهي بحروق من جمر ملتهب : دمية ، مشوهة ،
مرعبة .

إنني أتسكع أمام باب معرضه ولا أجروء على الدخول .. يمر بي شاب
وفتاة . يده في يدها وعيناه تشربان من عينيها . سرت ذات يوم مثلها وانتهى
كل شيء .. كم يبدو منظرهما سخيفاً ! كل شيء زائف وتافه . الحب ..
الخلود .. لا شيء يبقى سوى ضعفنا وعجزنا . لا شيء في الدروب سوى
الظلام والقلوب المريفة والتافهة .. أقف أمام الباب .. كل شيء على حاله ..
تمثال صغير لرأس امرأة يقبع في إحدى الزوايا وقد سلطت عليه أنوار حمر
باهتة فبدأ ملطخاً بالدم .. لا أستطيع أن أصدق انني كنت بهذا الجمال ..
وهكذا بلا سبب تطحن الملامح الفاتنة بقليل من الزجاج المسحوق وصرير
فراجل سيارة محطمة . ما أقسى جبال هذا التمثال .. إنه يدمرني . يقفجر
صقيع الحزن في أعماقي .. نبيل وشقراء ساحرة يقفان أمام التمثال يسند طرف
ذراعه إلى قاعدته باهمال مثير بينما يتحدث إليها .. أنسل بين الجمع وأقترب
منها .. صوته الذي طالما هتف باسمي يدغدغ أذنيها .. تراه يخبرها بأن
صاحبة هذا التمثال قد ماتت ؟ لا .. لا ريب انه يطلب منها أن تنجي كمي
تخلدها في الصخر كما خلدني .. ويوم تنجي .. ستقف أمامه في هذه الغرفة
كما وقفت .. نظراته الخبيثة تتحسس وجهها الجذاب وتلثمه بينما أنامله
الدقيقة تغيب في الطين وتخرج يدها برأس صغير جميل .. يتوسط الركن
المقابل لتمثالي .. ثم تمد يدها لتودعه فيضمها ويقبلها أمام تمثالي الجامد ..

ازداد اقربا به من شقراؤه وأضحى حديثها همساً . يخيل إليّ ان عيني
تمثالي قد اغرورقتا بالدموع .. وان احماقه المتحجرة تفتت وتدمى ..
لا .. لن أتركه هنا .. انه كل ما بقي مني ، يجب أن أهرب به من هذا
البحيم ..

تقع نظراته عليّ فجأة . ينتفض : ترتجف شقراؤه . تمسك بيده ..
ليتني أحطم المرأة التي تنصدر الحائط ساخرة من قبحي وأقطع أنامله الدقيقة
بجدها المرهف حتى يسيل دمه .. يغسل وجهي ويغرق في شقوقه وانحاديده
المرعبة .. إنه يسأل : ماذا تريدان ..

أجيب بصعوبة : أريد تمثالي .

— تمثالك ! تهتف الشقراء وهي تنقل نظراتها بين وجهي والتمثال .

يسألني : « وماذا بعد أن نحصل عليّ ؟؟ »

— لن ترى وجهي أبداً ..

يرفع الرأس البديع شامخ الأنف عن قاعدته .. يحمله بين يديه ويقدمه
لي .. تلتقي نظراتنا ..

في عينيهِ ألم مستسلم وعجز بائس . ذاب حقيقي في ثانية ... ما ذنبه ؟
ما ذنبه إذا كنت في سيارة اصطلمت بأخرى ؟ ما ذنبه إذا انتشلت من بين
الأنقاض جثة معجونة بالمسامير والزجاج ؟ انه لا يستطيع أن يفعل شيئاً . لا
يمكن لكلماته أن تردم الاخدود الرهيب وتعيد الشفة المغناج .. لو منحني
شفقته لزاد في عذابي .. إنه فنان يحب الجمال .. وأنا .. دمامة العالم ووحشة
القبور وبرد الجليد الوخاز . أتناول التمثال ويخيل إليّ لبرهة اني أبسم
لنبيل .. ولكنني سرعان ما أدرك ان ما يرسم علي وجهي لا يمكن أن يكون
ابتسامة . مجرد كشف عن أسناني المحطمة وتوسيع للتشويه في شفتي العليا ..
أحني بابتسامة يفضن القدر علي ؟

أحمل تمثالي جثة الماضي .. نعشي المضغوط .. أنفه الاشم يتحدى

قبحي .. خده الناعم يسخر من عمق جرحي . أخرج من المعرض بين ذهول الزوار واشمئزازهم .. لم تعد نظرات القرف تجرحني . لقد اعتدتها كما تعتاد الكلاب الضالة ركلات أقدام السكارى ..

وصلت إلى غرفتي .. أضع التمثال على منضدة متشققة وأتأمله .. ونخازة هي ظلمة الغرفة .. رائحة البرد تختلط بدمي .. حرقه دامية تمضغ ليلى الرهيب . أقف عارية في العتمة المتشنجة .. أشعر ان وحدتي منشار وحشي القسوة ينغرس في أعصابي المتوترة .. أنا وحيدة .. وحيدة كاللوت .. متعبة كالانين ... مخيفة ، أثير الاشمئزاز كمنالكب لزجة اللبوة .. أنسا كالموام .. يجب أن أدب في شقوق الجدران .. ان أخفي وجهي المشوه كلما مزق الظلام ضوء سيارة عابرة . أنا ضعيفة . ما زال بي حين إلى إنسان لا يخاف قبحي . يشعر بأنني لا زلت إنسانة أتألم وأحلم .. أكاد أتمزق وأنفجر .. ديدان الاسى تلتق جراحي الدامية بنهم مروع .

أسرع إلى النافذة وأفتحها . أرى شبح رجل يتحرك في الزقاق الضيق برشاقة .. النور المتعب ينسكب على كتفيه ويفيض عند خصره .. انه رائع التكوين شهبي المنظر .. انه يفجر ذكري وخوفي ويأسي . أركض مجنونة نحو درج مقفل .. أخرج مرآة وأنظر في وجهي .. آه ما أقبحه .. ما ألد قبحه .. الانحدود المشوه جزء مني .. الشفة المربعة هي أنا .. دميعة .. لا أحد يعترف بانسانيتي ، فلأعترف أنا بحيوانيتي ووحشيتي .. أنظر في وجهي بقسوة عجيبة وألم مدمر للبدن .. أشعر انني أتحدى العالم ببشاعتي . أتحدى التمثال شامخ الأنف .. موجة حرق مسعور تفجرتني .. أرمي بالمرآة وأحمل إحدى قطعها المديبة . أقرب من الرأس اللين وأضواء حمر تراقص عليه وجو الغرفة يعبق برائحة الدم . انني اشوّهه بحطام المرأة مديبة الاطراف .. اشوّهه بحرقه .. أدمر الانساعة التي يعترف بها الناس . أما أنا فهامة تدب ... أظعن التمثال في خده الأيمن . ها هو ذا الانحدود المرعب .. اشوّه الشفة أسحق

الذقن .. أضرب العين التي تبلل دموعها يدي .. لا يمكن أن تكون هذه
دموعي، فأنا لا أبكي .. الدم يسيل من التمثال ويغسل يدي كأنما جرحتها
حطام المرأة .. الدم والدمع يختلطان .. أضرب التمثال برأسي الدامي فيرتطم
تحت أقدامي . أهوي على الأرض متعبة .. نور سيارة عابرة يتسلل إلى
الغرفة فأزحف على الأرض مذعورة .. كم أكره الاضواء ! اشعر انني
في مصعد .. التابوت الخشبي المحبوب .. انني أهوي .. أهوي باستسلام
ممتع .. ضجيج المدينة يغيب .. سكينه اليأس تغمرني .. أهوي .. أهوي
في أعماق سحابة بلا نهاية .. صخب العيون المتقززة يموت .. ما ألد
أن أضيع في عالم ضبابي حيث لا ضجيج ولا نظرات ..

مات التمثال .. مات الماضي .. لم يبق سواي أحمل عذابتي وأدور به
في ليل مدينتي المريع ، أنحدر أبداً في مصعد كهربائي يسقط بي إلى هاوية
تمثالي المحطم .

لو

الليل في دروب السماء غامض جبار . البرق يلتمع وحشياً في شبكات
عنكبوتية تنسجها العاصفة ، في وجه طائرتنا .. المطر ينبت من الزجاج
الأمامي لغرفة القيادة ويغسله .. العرق البارد يتصبب من جبين القائد . عامل
اللاسلكي يقذف بالجهاز جانباً بعد ساعات من المحاولة اليائسة . نحن جردان
في علبة يتلهى الاغصان بها . علومنا وكتبنا وتقاليدها تنمزق أمام العاصفة لنبدو
على حقيقتنا . الركاب جميعاً يعيشون في لحظات الخطر هذه بدائيتهم الشرسة ..
حتى أنت يا زياد .. من كان يصدق ذلك يا إله التمر ؟ أفضل البقاء هنا مع
القائد .. انه وحده يبدو لي انساناً متحضراً يكافح من أجل الآخرين . يخاطبني
دون أن يلتفت : لقد تعطل جهاز قياس الارتفاع .. سيكون هبوطنا عسيراً
إذا نجونا ، أخرجني إلى الركاب وحاولي تهدئتهم ...

صوته محموم . كلماته لا تخيفني . تبعث في نفسي احساساً دافئاً بنشوة
همجية حاقدة .. سيموتون .. سيموتون جميعاً .. وعيناك يا زياد ، لمبتا
معبدتي المقدستان لن تضيتا إلا لي .. لن تكونا لها ..

أفتح الباب وأخرج إلى الركاب .. ما زالوا كما خلفتهم منذ دقائق . طفلة
تنوح . عجوز تعول مصلية . الطائرة تميل فجأة . جيني يصطدم بشيء ما
وسبخ من اللهب يتوهج في عيني ثم ينطفئ . الوجوه والاشياء أبخرة زائفة
تتطاير في فضاء الطائرة ثم تتوضح شيئاً فشيئاً .. وانت في مقعدك ، وعيناك
لا ترحمان . وعروسك إلى جانبك شقراء شفافة دقيقة ملونة لم تعهد غضبات
العاصفة في أزقة السماء .

لا تنظر إلى وجودي مستجدياً دمة . علمتني أمي كيف لا أبكي ..
يوم مات أبي أطلقت نساء الحي ألسنتهم في الحديث عنها لأنها لم تبك ..
ورغم أنفهن لم تبك .. لكنني لم أرها تبسم قط بعده .. لم أرها تبسم إلا يوم
أنهيت دراستي الثانوية ووجدت عملاً هادئاً نعتاش منه في مكتبة المدينة الكبرى ،
ولم أسمعها تجامل رجلاً إلا صاحب المكتبة الشيخ الذي ملأ وجودي بحبائه
وكتبه وهذونه . وكنت سعيدة في عملي .. انعم بسكينة الصمت وفضيلة
الرتابة .. حتى أطلت عيناك شريرتين رائعتين وثنتين .. فتمزق الصمت
ونفقت السكينة .. هل تذكر ؟ لا .. لا تنظر إلى وجودي مستجدياً دمة ..
أنا المضيفة وعلي ألا أبكي .. يخيفك المطر الوحشي الذي تسكبه العاصفة على
الزجاج إلى جانبك ؟ كم أحب وجهك في المطر .. كيوم رأيته للمرة الأولى ..
لو ان المطر لم يهطل تلك الليلة منذ عامين .. لو ان رائحة الحياة لم تفتح من
ضباب المطر للأرض .. من ثبات قطراته لبحر الشوارع الجافة .. من
تغلغلها الثائر المثير فيها . لو ان المدينة لم تستسلم لرحف المطر في أزقتها .. لو
ان وجهك لم يطل خلف الواجهة الزجاجية للمكتبة ندياً جذاباً كأسطورة ..
لو لم تدفع الباب بعد لحظات وتطلب مني كتاباً .. لو لم تلتق نظراتنا في لحظة
انجذاب خفية .. لو لم تكن عيناك لميتي معبد تعبقان بالبخور والحكايا الغامضة .
لو لم أحبك .. ربما كنت أظل هناك في المكتبة أبداً ، أقضي حياتي دون أن
أمتطي الطائفة مرة واحدة ..

هل تذكر ؟

كان شتاءً مدهشاً .. وكان ربيع عهود .. وكان صيف استعداد لشراكة
لا يفصمها إلا الموت .. وتمت سعادتني يوم علمت بفوزك النهائي بشهادة
الطب .. وفي الحريف فاجأتني بأنك سترحل إلى باريس للتخصص .
ومضيت وبقيت وحدي في المكتبة .. أعود كل أمسية إلى أمي بومة مبللة ..
وانت بعيد .. بعيد ...

وليلة رأيت فائنة تتألق في ثوبها الكحلي والناس من حولها يتهايمسون
بأنها مضيفة ، لم أتم .. كنت أفكر : لماذا لا أكون مضيفة ، فيدفعون لي
نقوداً ثمن رحلاتي ؟ وأراك في غربتك ؟

كان الجحيم عندي أن أبيع كتاباً لانسان أجهله ، أو ان اضطر لمحدثته ..
وان أسير في الشارع وحدي دون أمي أو ان أفارقها ليلة واحدة .. ولم أتردد .
لم تترك لي عينك الوثنيتان أي خيار .. وانتقيت جحيمي .. وأصبحت مضيفة .

عامان ولا صديق لي سوى الليل في دروب السماء .. عامان وعينك
تحملني من تيه إلى صحو إلى تيه .. عامان والصقيع ينبت مع أهدابي في
ليالي الشتاء .. وقوس قزح يولد شلالات ضياء ملونة ثم ينطفئ ..
والخطر الغامض يتهددنا في مكان ما .. نزحف في فضاء لا نراه .. عامان
وأنا أحسد الحشرات التي تتحسس دربها بأناملها وقرونها .. فالأجهزة
المعقدة أضحت أعيننا وحواسنا ونحن قد استحلنا إلى استطلاات لحماية لابرها
وموشراتها الحديدية .. عامان وأنا قانعة بالجحيم ما دام الجحيم وسيلتي
لأراك .. لماذا لم تقل لي يومئذ انك لم تعد تحبني ؟ لماذا ، بعد عامين من
التسكع في ازقة باريس ، فاجأتني بزواجك بزميلتك الشقراء ، ونحقت
نشوتي الطفلة بنجاحك النهائي ؟

إنها ترتعد الآن إلى جانبك .. لم لا تحنو عليها ؟ هل سلختك العاصفة
عنها ؟ ألم أقل لك منذ أسابيع ، وكنت قد لاحظت فتورك ومملك ان لا صديق
لي بعدك سوى الليل في دروب السماء .. لماذا تدهشك غضبة الليل من أجلي ؟
هنا كانت مملكة بويسي ووحدي وأنت يا إله التمر لم تعد تجذبني إلى غموض
كهوفك ، لم تعد تثير في نفسي حنيناً إلى سجاد بدائي خاشع لا لأنك تركتني ،
ولكن لأنك خدعتني .. لو قلت لي انك لم تعد تحبني ، لو لم تفاجئني بزواجكما
لفقدتني كحببية انثى ، ولكسبتني كصديقة انثاة .. لماذا تدهشك غضبة
الليل من أجلي .. ستموت ! كما ماتت أمي ذات ليلة ، بائسة تبكي وحيدتها

الضالة في سماء مدينة ما .. الباحثة عن ملاح كان نجم صبحه زيفاً وخداعاً ..
أمي ماتت بعد أسابيع من عملي كمضيفة : قتلها القلق والخوف ..

هل تسمع ؟ في الخواء .. في غيمة كفنية البياض تتمدد امرأة عجوز
كسندية مقدسة ، تنوح في صوت جبار مصري .. تبكي من أجل طفلتها
الضالة في سماء ما ... تبكي منذ الأزل كنواح الهنديات في وديان غامضة
الاصداء . هل تسمع صوتها الحاد صافياً يهيج لوعة الغيوم وشهوة الصواعق
إلى الدم ؟ لماذا يخيفك ان تنتفض الطائرة كنجعة صرعاها الجزار ؟ لا .. لا
تشح بوجهك عن عروسك .. الآن افهم انك ما أحببتي قط وما أحببتها ..
ما أحببت إلا نفسك .. بعد قليل يتمزق زجاج النوافذ .. وتتسلل ريح دامعة
بجناثية العويل .. بعد قليل .. تحمل العاصفة كلاً منا وحيداً .. وتغنمك
سحابة كثيفة كجبل جليد .. تدفنك في أحشائها لتبقى أبداً ضالاً في السماء ..
وحيداً لا تعرف نشوة العطاء .. انه ليس عقاباً .. انها تعرية لوجودك ، ليس
في السماء عقاب لك أكبر من ان تواجه نفسك وتراها على حقيقتها ..

الطائرة في فم وحش خرافي يلوكها .. طفل في الركن يتمزق أربطته
ويهوي . أمسك به ، أمه مغنى عليها .. رجل بدين يدفن وجهه بين يديه .
كاهن يبكي . ما زال رأسي يؤلمني . الليل والمطر يلعبان النافذة إلى جانبك ..
وجهك ينوس أمامها . لا تنظر إليّ بعينيك الشريرتين المحببتين .. انها
تستثيران حقدي ، ألا تسمع ؟ في الخواء .. في غيمة كفنية البياض تنوح عجوز
الأزل من أجل طفلتها الضالة في سماء ما .. دميتك الباريسية تبكي كأنما
تسمعها .. لماذا تهملها الآن ؟ أما أحببتها على حد زعمك ؟ أما تركتني ضالة
في السماء ربيبة الغيوم لأجلها ؟ تزود منها بنظرات الروداع .. امرأة تعول في
مؤخرة الطائرة .. يجب أن أذهب إليها .. لا أستطيع أن أتقدم .. الوحش
ما زال يلوك الطائرة .. لن نهبط في المدينة .. لن يكون لكما موقد وطفل .
العاصفة تفرع النوافذ وأنا أتقدم نحو المرأة المعزولة ببطء .. ستحطم النوافذ

للتدفق ندية سخية عادلة .. عويل ، وأمتعة تهوي . اسقط في حضن امرأة
كانت تصلي . وجهها يشبه وجه أمي . لا تريد أن تموت . أنهض . احسن ان
مقدمة الطائرة تنجيه نحو الاسفل . التقدم نحو مؤخرتها شاق وشبه مستحيل .
المرأة هناك ما زالت تصرخ . عيناك قريبتان وأنفاس عروسك إلى جانبي
تحرقني . عيناك فارغتان مشققتان كيدير لم يشهد موكب الندى . وجهها
طفولي متعب كوجه قطي التي ضللت بعد رحيلي .. أمسحه بحنو .. لا
اكرهها . انها واهمة كما كنت واهمة .. لا تدري ان آلهة التمر لم تعشق قط
إلا نفسها .. هزة عنيفة تقذفني عنها . أتماسك . ضجيج وفوضى . هزة عنيفة
تصلبني أرضاً . ألم حاد . أستسلم . أستسلم لزحف النمل في جسدي .
الاشياء تهدأ في أمكنتها فجأة ، كأنما بصق الوحش طائرنا بعدما سئم
من مضغها .. هل أنا واهمة ؟ ضحكات وهتاف .. يقولون انا نجونا .. يد
القائد دافئة على جيني . يساعدني على الهبوط . كانت الضربة خفيفة ساعة
هبوطنا العجيب . لم يحدث شيء .. أنهض . يسندني إلى صدره . الركاب
يتراحمون حول الباب وضحكاتهم المستيرية تعلو . عمال المطار متجمعون
حول الطائرة وأضواء المصابيح الكشافات تسبح على الاسفلت مع مياه المطر ..
وانت يا زياد تضمها اليك لتهدأ .. بعد ان كنّا غريبين طيلة ساعات
الخطر .. لم أعد أحسدها .. لا ، ولا أرغب في موتك .. حسبكما بؤساً ان
تعيشا معاً .. أنايتك وضعفها .. سئمت كل شيء ... أريد أن أعود إلى
المكتبة .. الآن .. الليلة .. الجميع يجلسون في مطعم المطار . يقول القائد انه
سيذهب إلى المدينة فوراً . سأرافقه . يساعدني بينما أحمل جسدي المنهك
كالخطيئة وأرمي به على مقعد السيارة . أغمض عيني واستسلم للظلمة ،
لصوت المطر على الزجاج ، لصوت الدواليب تمزق برك الماء .. إلى المكتبة
أذهب .. لأنني جائعة إلى السلام ، إلى لحظة سكونية وصدق وطمأنينة .. في
مثل هذه الساعة من الليل ، لا أتوقع ان أجد أحداً .. ستكون المكتبة مظلمة
إلا من الضوء الاخضر الباهت الذي اعتدنا ان نتركه في الزوايا ... وسيكون

الباب الحديدى ذو القضبان المربعة مسدلاً .. حسبي أن أقف على الرصيف
لامبالية بالمطر ، أدس بوجهي بين القضبان لأرى مقعدي القديم الذي كانت
تجلس عليه أمي حينما تزورني .. حسبي أن تزحف نظراتي لتتحسس رفوف
الكتب وتنبش من بينها أهذا ساعاتي المدفونة هناك .. حسبي احساس عميق
بأنه ما زال في العالم ذرى خلاص ..

سأعود إلى فردوسي المفقود وأنسى كل شيء عنك وعن عينيك الوثنتين
وعن الرحيل في عتمة الشتاء بين الغيوم . غداً أهجر الطائرات وأعود إلى
المكتبة .. السيارة تقف .. القائد يقول إنا وصلنا إلى الشارع الذي حددت
اسمه . أفتح عيني . أهبط .. انني بخير .. أجل أستطيع السير والضحك
أيضاً ... شكراً لك .

تختفي السيارة . أنا وحيدة في الشارع القديم المحبب وأضواؤه الملونة
يغسلها المطر . نحو المنعطف الذي تقع المكتبة في أوله أتجه .. لو لم تكن عينك
لهبتي معبد تعبقان بالبخور والاسرار .. لو ان المطر لم يهطل تلك الليلة ...
ربما كنت الآن أتمرغ في ترف النوم والدفع إلى جانب أمي وأحلام الأطفال
تداعيني .

أصل إلى المنعطف حيث المكتبة . ما هذا ؟ هنا كانت المكتبة .. ماذا
حدث ؟ ألحان فاجرة تنسكب مع أحوال الشارع . مجموعة من الناس تفور
أمام باب لم أره من قبل . أركض نحو الباب خوفاً وحسرة .. يا لله .. أين
المكتبة ؟ لقد اختفت كأنها لم تكن .. تبخر حلم الفردوس المفقود .. لا كتب
ولا صوفية الضوء الأخضر .. لا شيء سوى ملهى ليلي مخمور .. أزحف
نحو الباب أتحمسه بيدي .. مجموعة من الشبان تدخل متدافعة عريضة . لا
أدري كيف وجدت نفسي بينهم وراء الباب ... دخان وروائح ملونة
عتيقة .. راقصة ملونة فاجرة الحركات تتلوى قبيحة مغناجاً مزيفة الاصباغ
كالحياة ... ضحكات ذئبية تزحف بين فجوات الجدران المزيفة .. أحدهم

يحدق إلى وجهي بفضول ضيق جائع .. أنطلق هاربة .. أركض في المطر ..
يفسلي .. ألفت للمرة الأخيرة أنتحق من أن ما شاهدته لم يكن حلماً . على
سطح الملهى تنن بومة مبتلة .. الكتب الحبيبة ومقعد أمني ، وأشياي المحببة
تتمزق تحت حذاء راقصة عنيف الضربات .. حزن مفجع حقيقي ينبت في
أعماقي بوحشية زهور برية .. لا مفر من لعنة عينيك الوثنيتين ..

لا مفر من أن أظل المضيفة الغامضة ربيبة الغيوم ... لا مفر يا مدينة
الظلال .

الفجر عند النافذة

وضعت على المنضدة الصغيرة إلى جانب زوجها ابريق (العرقسوس)
والصقت بجده كأساً واحدة ، ثم تأهبت للانسلال من الغرفة .. كأس واحدة
فقط لن تضع سواها ... الضيفة المتطفلة التي تحضر كل ليلة لن تجلب لها
كأساً يديها .

صوت بكاء طفلها غسان يتعالى ويتداخل مع همسات مذيعة التلفزيون
الحسنة ، التي يحيل اليها انها تبسم ساخرة منها كلما دخلت إلى الغرفة متعمدة ..
غسان يبكي ، انه مريض ، كيف ابتعدت عن سريريه ؟ ... ما تكاد تستدير
لتخرج من الغرفة قبل أن يلحظها زوجها ويناديه ، حتى تسمع صوته
يهتف :

— قفي ...

تجمد في مكانها ثم تستدير ببطء ، وتقع نظراتها عليه بينما أضواء التلفزيون
الشاحبة تداعب خديه وعنقه برقة نسمة . كم تحب هذا الوجه الاخرس
الجماد الذي لا يعبر عما يطوي من عذابات وأمان .. وعيناه الخضراوان بجوع
ربيعهما إلى شيء مجهول .. إلى حصاد صيف اسمر . تظل تتأمله كأنها تراه
للمرة الأولى بينما يتابع هو حديثه :

— لماذا لا تجلسين معنا وتراقبين التلفزيون ؟

تجيب وحييات لزجة بدأت تنعقد فوق جبينها : غسان مريض ..

يقاطعها بحق كتيب : وقبل غسان كان فوزي قد أحرق يديه .. وقبل

فوزي كان عدنان مصاباً بالتيفوئيد .. وسلوى لا تنام قبل الواحدة بعد منتصف الليل .. ألم تلحظي انني أعيش وحيداً منذ رزقنا أولادنا ؟
وتهذي معولة : وهل تريد مني أن أتركهم يموتون كما مات مازن ؟
طفلنا الكبير مازن .. هل تريد أن نجلس ونتسامر ثم ندخل إلى غرفته فنجدّه ميتاً والخدمة تحلم بجانب سريرهِ ؟
يهدها ملاطفاً : ولكن جارتنا ضيفتك .. انك لم تجلسي معها ليلة واحدة منذ جاء التلفزيون ..
بغيرة وسخرية ترد عليه : ولكنها ضيفتك الآن ... ضيفتك منذ أسابيع ...
يصمت ... لا فائدة من الجدل .. تنسلّ وتبحث خطاها نحو غرفة أطفالها ، وعبارة زوجها الأخيرة ما زالت تروح وتجيء في خاطرها كموجة عنيدة ..
« جارتنا ضيفتك » .
ضيفتها ! كم تحقد على شعرها الاسود والشباب المتدفق من ثيابا جسدها ..
ضيفتها ! لقد دعته لمشاهدة التلفزيون ذات يوم بعد أن شكت اليها غياب زوجها السائق عن داره كل ليلة حتى انتصاف الليل بحكم عمله .. وشكت اليها فشله في الحصول على جهاز تلفزيون يونس وحدتها ووحشتها .. لم تكن تتصور انها ستستغل دعوتها وتأتي كل ليلة منذ أسابيع لتجلس في المقعد القريب من مقعد زوجها ، ولتلازمه حتى قرب انتصاف الليل .. لم تكن تدري انها ستلغغ غالياً ثمن طيبتها ، نزوة غرورها واحساسها بالتفوق ..
تصل إلى غرفة الأطفال ... تدخل بهدوء وقد لانت ملامحها كما تسترخي أغصان (المستحي) حينما تصافح أشعة الشمس .. طفلها ما زال يئن معولا ... يدهشها ان اخوته لم يستيقظوا .. هل يمكن أن يكونوا قد ماتوا جميعاً كما مات مازن ذات مرة بصمت ؟ تقرب منهم برعب هستيري محموم وتنحني عليهم واحداً واحداً لتنتشي بعبير أنفاسهم .. الحمد لله .. ما زالوا بخير .. كل

شيء كما تركته منذ لحظات ... مقعدها الجلدي بجانب سرير غسان وقد غاص موضع جلوسها فيه كأن المقعد ما زال يحلم بجلوساتها الطويلة في أحضانه .. الضوء الخافت يتسلل إلى خزانة الألعاب القريبة فيحتويها جميعاً بنهم طفل .. فوزي ويداه الملفوفتان بالأضمة البيض مرفيتان فوق صدره .. سلوى مفتوحة العينين لأن الساعة لم تدق الواحدة بعد منتصف الليل .. وعدنان بضمه الممتلئ المستدير كرسوم الاطفال في المجلات التي تبتاعها له .. كم تحبهم ! تنحني على سرير غسان وتقبله .. يكف عن أنينه الباكي ويفتح عينيه ، قراها في النور الشاحب كعيني أبيه ، خضراوين جاثعتين كريع يترقب خصب حصاد اسمر ، وكعيني أخيه مازن الذي مات بينما كانت تسامر أباه منذ أعوام .. لكن طفلها لن يموت بعد اليوم .. ستحمل ثورات أبيه وسأمه حتى يكبر ويصبح شاباً ثم ترتدي لزوجها من جلديد ثوبها السماوي الشفاف .. لكن ثوبي السماوي الشفاف لم يعد يناسبني .. انه يليق بفتاة جميلة الجسم .. بجارتي مثلاً ..

ها قد عادت تفكر في الحارة .. صورتها الجميلة تعذبها .. ومضات النصر في عينيها الزنجيتين تعذبها ..

قالت لزوجها ذات مرة تنقدها : « ألا ترى الخطوط الحمر في عينيها ؟ انها تشوها .. »

وبلا مبالاة ممزقة أجاب : عيناها ساحرتان والخطوط الحمر فيها تذكر بليال من نشوة وسهر .

هذه المرأة التي تذكر زوجها بليال من نشوة وسهر تعذبها .. ماذا يفعلان في الظلمة ؟ أحقاً انها يحبان التلفزيون إلى هذا الحد ؟ ألا يشم دفء انوثتها مع موجات الظلمة الفضية التي يصوغها التلفزيون بأنواره ؟ هل يسقيها (العرقسوس) الذي تحبه بكأسه لأن زوجته لن تحضر لها كأساً ؟ كم من المرات فاجأتها وبنفسها رغبة شريرة في أن ترى شيئاً ما .. أي

شيء يؤكده مخاوفها ويخلصها من عذاب الشك .. لكنها كانت تجدد كل شيء في مكانه .. زوجها في مجلسه المعتاد بوجهه الحامد الذي كان يذوب ويجداً للمساة أناملها منذ أعوام .. والحارة في مقعدها وقد ازداد بجالها غموضاً في النور الخافت فبدت كترجسة نحوم حولها أسراب فراش فضولية .. لو تكتشف مرة أنها يخدعها ولا ينصتان إلى التلفزيون ويرقبانه .. لو تكتشف شيئاً ..

الباب يقرع ... انه اسلوبها ، ثلاث ضربات خفيفة .. لقد جاءت ! تسمع طيور غابات عذراء تزقق مذهورة وتتراكض أسراباً خائفة ... جاءت تفرس الطيور .. تسير بتثاقل لتفتح الباب وتكتشف ان زوجها قد سبقها اليه ... ما معنى لهفته وهو الذي قال ان الحارة ضيفتي أنا ؟ ... تبدو الحارة على عتبة سمراء دافئة كأمية صيف شرقية ، تفيض ظلالاً ونداءات ناعمة خفيفة كأسطورة ..

لقد جاءت بشعرها الاسود القصير ، المشعث فوق جبينها بحبوية طفلة واغراء امرأة ! لماذا ترتدي هذا الثوب السماوي الشفاف ؟ . بلا وعي منها تمتد يدها لتتحسس شعرها الطويل الذي كان أشقر فأضحى مهملاً متعباً كأهداب حزينة لعين فقدت بريقها .. تباusk .. تقترب منها .. تصافحها ببرود . الحارة لا تعبأ بها وانما تقول ضاحكة وهي تتجه نحو غرفة الجلوس مع زوجها : هل فاتي الكثير ؟ يجيبها بحبوية ما قبل تسعة أعوام : سأحدثك بكل شيء .. همساتها تضعع عندما يغيبان عن عينيها . ضحكاتها الحارة المرتفعة لطمات حارة على خديها .. ستتبعها لتجلس معها ..

وتعلو صرخات غسان فجأة .. مسكين غسان ، إنه مريض كأخيه مازن .. تسرع اليه كأنما نسيت العالم كله .. تهدده بينما تفور في حلقها أصوات مرعبة وتهلر ، دون أن تقوى على طردها إلى عالم الصمت الذي

سيطر فجأة بعد سكوت غسان : انه زوجي .. لم يعد يستطيع الاستغناء عني ... ترهلي وشعري المشعث ووجهي الذابل جزء منه .. أنا من بعض قميصه الصوفي في الشتاء وأمراضه وفرحته .. ضمت في أغواره وانسكبت فيه وامتزجت به كاختلاط مياه نهر مع أمواج البحر عند المصب ..

لا تدري كم من الوقت مر عليها بعد أن أغمض غسان عينيه الخضراوين العجيبتين اللتين تذكراها بعيني مازن .. كأنها عينا مازن نفسها وقد استجاب الله لدعائها وبعثها من جديد في جسد غسان ... وهي لن تترك ابنها يموت مرة ثانية .. انها فرصتها الاخيرة .

أمواج الصمت تنسكب من أهداب سلوى التي لا تنام ، ومن السقف الابيض حيث تحدق .. حتى النور الاصفر يبدو متعباً مهترىء الظلال كأنه مريض منذ عصور .. سلوى تغمض عينها .. كيف ؟ لما تدق الساعة دقتها الواحدة . الحمد لله .. جميعهم قد ناموا بسلام ..

تتنفص . تحس فجأة انها امرأة غیری .. ان أظافرها المتقصفة جائعة متوحشة ، وان أناملها بدأت تنمرد وترتجف بعصية مشبوبة .. زوجها في الغرفة المجاورة وحيد مع الفتنة السمراء ..

تتشنج عيناها فجأة وتومضان ظلالاً حمراً نارية ، يتقلص خداهما كأنما ارتاعا لهذه الظلال .. ستفاجئها ..

تخرج من الغرفة بهدوء ... تنسل في البهو متجهة نحوها .. تصل إلى غرفة الرعب وتدخل فجأة وهي تحدق اليها .. لا جديد ! هو في مجلسه المعتاد .. الجحارة بشعرها القصير المشعث بعث طفلة واثارة امرأة ..

زوجهما يطلق إحدى عبارات الاستحسان تماماً كما يفعل كلما فاجأتهما ... لو كان يعرف ان هذه العبارات بالذات تثير شكوكها بدلاً من أن تطمئننها .. تكاد تعود خائبة فرحة بخيبتها لو لم تحن منها التفاتة نحو جهاز التلفزيون ، ل ترى موضع استحسانه هذه المرة ، فتجد شاشته فارغة إلا من خطوط

عرضانية تهزول وتلف مدعورة ، ونقاط مضببة مبعثرة بينها ترقص بهوس
هستيري !

تظل نظراتها تقفز من الشاشة إلى وجهيها بالتتابع وقد ذاب فيها عذاب
الشك وحل محله عذاب اليقين !

أهذا موضع استحسان ؟ أم انه أطلق صيحته ، بحكم العادة ، دون أن
يرى ان الشاشة فارغة .. لأنه لم يكن مشغولاً بالشاشة وانما بـ ... لا تريد
أن تصدق ... ليتة يقول شيئاً .. يفتح فمه ويهتف ضاحكاً : « يبدو ان
حظك سيء ... لقد تعطل التلفزيون فور انضمامك الينا » .

تعرف أنه يكذب ! تسع سنوات من الحياة المشتركة كانت كافية
لتفهم معنى الرعدة الخفيفة في صوته وهو يحاول ان يزيف الاشياء ويبدو
طبيعياً مازحاً .. ولكن .. لعله لا يكذب .. ليتة لا يكذب .. تقرب من
الجهاز ، وقبل أن تمس أناملها المرتجفة أحد مفاتيحه ، تتوضح صورة المذيعة
الحسنة وهي تبسم في وجهها بسخرية ممزقة وتقول بعلوية وخآزة : نعتذر
لكم لتوقفنا عن البث في نصف الساعة الماضية بسبب عطل طارئ .. والآن ،
نقدم لكم

لم تعد تسمع شيئاً . نصف ساعة لم نحن من أحدها الثفائة نحو التلفزيون
ليدرك انه قد أغلق سوره الفضلي دون مديته العجيبة المثيرة ! لعله كان
مشغولاً بعينها .. تلتنعان في الظلام وتذكران بليال من نشوة وسهر ..
آلاف الكلمات التي كانت قد أعدتها لمثل هذا الموقف تستحيل في حنجرتها
إلى أنات حيوان ذبيح ..

آلاف الدموع التي كانت تسكبها بمناسبة وبلا مناسبة غاصت وترسب
برودها في أغوارها .. أي شيء تقوله سيبدو مخيفاً أمام نول العذاب الذي
يتحرك بقسوة بين ضلوعها ناسجاً فيها غلالة يؤس حقيقي .. هذه اللصة !
ستصفعها . ترى في عيني زوجها تلهناً خائفاً متوسلاً .. لن تأبه ! ..

سنصفعها .. ماذا ؟ من يصرخ ؟ إنه غسان ... طفلها الحبيب يبكي .. مازن مات دون أن تسمع صراخه .. أي عالم أحلى من عالم ابتسامته ... ستركها .

تخرج بصمت قمة وكبرياء سحابة ممطرة وتغلق الباب وراءها .. تسرع إلى غسان .. ما زال يبكي ... تهدده .. تحس أنها تستطيع أن تحارب جيوش العالم كلها من أجل ابتسامة في عينيه .. وتراه يصمت وينظر إليها فيطل منها ربيع يواسي بوئسها ويملأها بنشوة البذل المطهرة .. وتبكي فجأة .. تبكي بصمت كما لم تبك في حياتها .. للمرة الأولى لا تريد أن يلمح زوجها دموعها أو يحاول إرضاءها .. للمرة الأولى تحس بنقاء الدمع وصفائه .. تنهالك في مقعدها وتنظر إلى أولادها بلذة كأنها تشارك رؤوسهم الصغيرة أحلامها الصيانية العذبة ..

تسمع صوت اصطفاق الباب .. ماذا ؟ هل ذهبت ؟ للمرة الأولى تمضي قبل انتصاف الليل .

خطوات زوجها تتجه نحو غرفة أطفالها متعبة هرمة مثاقلة .. كأنها خطوات نسر جريح عبثاً يزحف نحو قمته التي أضحت بعيدة يغمرها الضباب ...

وتغوص في مقعدها ، تحديق إلى الضوء الأصفر المريض وظلاله المهترئة ، ثم تركز نظراتها في النافذة ، حيث يولد الفجر كل صباح .

قتله لأخيه

الحان خافتة مجرحة تتسلل إلى غرفتي من صالة الفندق .. ويخيل إليّ ان
الآوتار تنتحب بلوعة مبهمة .. لوعة لا يجاريها غير أنات الأمواج التي
تتشبث مستميتة بأقدام الصخر أمام الفندق . البحر يعول هذه الليلة وكأنما
يحمل صرخات أهل جزيرة استفاقوا فجأة ، ورأوا ان النجوم تهاجر من
سماهم لاهثة وراء موكب تائه للملاح ما زال يدور ويدور باحثاً عن باندورة .
بودي لو أفتديه .. ولكن الليلة ليلة العمر التي سعبت إليها بمواهيبي
كلها ..

المسرح الكبير يناديني حيث وقفت للمرة الأولى منذ عام ، فتاة مغمورة
لا يحميها إلا دفء ليل زنجي في عيني رجل حبيب ، حبيب إلى نفسها .
ألثقت إلى سريري . تقع عيناى على جريدة مفتوحة تنصدر إحدى
صفحاتها صورة كبيرة ضاحكة لحسناء .. وتنفض نظراتي بعنف وتعود
إلى المرأة حيث تقع على الوجه نفسه ، لا تنقصه سوى الضحكة ..
ألا تستطيع الأمواج أن تسكت ليلة واحدة فترحم عذابى المبهمة بصمتها ؟
أنهض عن مرآتي لاغلق النافذة .. تنزلق نظراتي على الصخور .. ما
زال الموج يزحف باحثاً بلهفة عن أقدامنا الهائثة ، حيث جلسنا منذ عام
نحتفل بنجاحي في اليوم الأول لوقوفى على المسرح .. كنت مذعورة وخائفة
تلك الليلة .. لما وقفت أمام الناس ، ورأيت الجدران مطلية بالعيون النقادة ،
أحسست برغبة في الهرب .. كدت انفجر باكية .. ولكنه كان يجلس

أمامي في الصف الأول وفي عينيه العميقتين دفء ليل زنجي .. وهربت
نظراتي من جوانب القاعة ، وتركزت جميعاً في الملامح السمر الوسيمة .
وكان فيها نداء مخدر كأنفاس حسناء في أمسية صيف .. همساته تهدر في
كياني .. « صوتك رائع .. ستنجزين .. سيحبك الجميع .. »
وانطلقت أغني له وحده .. أنشد لليل عينيه الزنجي .. وغاض الناس ..
ضاعت الجدران والابعاد .. ثمل الصدى .. لم يبق سوانا في فجر وردي
الضياء ..

واستيقظت على تصفيق الجمهور وهتافه .. واكتشفت يومئذ ان التصفيق
رائع ولذيذ .. وانني عطشى ونهمه .. وانني أريد المزيد ..
وعدنا إلى الفندق والعبارات المتملقة ترضي غروري الذي بدأ يعلن
عن نفسه بتمرد وقح .. وقبل أن يأوي كل منا إلى غرفته هبطنا إلى الشاطئ
وجلسنا عند هذه الصخرة وما زالت نخمرة الإعجاب تملك حواسي ..
تأرجح صوته الحنون في طيات الأمواج قائلاً : هل سمعت آراءهم ؟ ..
قالوا إن صوتك مدهش .. لا يتفصك سوى مزيد من الانفعال والرغبة في
التعبير عن شيء ما .. ولكن ، دعينا منهم ومن آرائهم .. أريحيني . قولي
متى نتزوج ؟ ..

— هل يجب أن نفسد علينا سعادتنا كل مرة بمثل هذا الحديث ؟
تعرف انني أحبك ، لكنك لا تفهم رأبي ..

— كفى ، لا داعي للبحث في الموضوع ذاته من جديد .. اعتذر اليك
عن ضعفني الذي ساقني اليه فرط حبي .. ثقي ان ولعي بك كان يمنعني عن
الرحيل ..

ومزقت نجمة متمردة مدارها في ركن عينيه بينما كان يقول بقسوة
جريح : لن أعود حتى أكون الرجل الذي تبتغين ..
ولعل ظل أسي تسلل خلال غروري وصبغ وجهي بصفرة شاحبة إذ

انه أضاف ثائراً مهدئاً : غداً نعود إلى دمشق ، وهناك نقرر ما نفعل ..
وغابت يداي في بيادر شعره ، وعربدت النشوة في مسامي بينا كان
يسحقني بين ذراعيه وصدره ..
ولما استيقظت في اليوم التالي قالوا انه رحل .. ولما لحقت به إلى دمشق
قالوا انه رحل بعيداً .. وحيداً .. لي جلب بلحدي العاري الذي يحب اللؤلؤ
عقداً من اللؤلؤ ..

* * *

ألا تستطيع الأمواج أن تسكت ليلة واحدة ؟ .. لماذا تظل تردد وتردد
الحكاية نفسها منذ وصلت إلى هذه المدينة وحدي بدونه .. منذ وقفت إلى
مرآتي أنزين استعداداً لليلة الفاصلة ؟ ألم تهريء الحكاية أيتها الأمواج المتمردة ؟ ..
المسرح ينتظرنني ومئات العيون تتكدر في زواياه .. النقاد تجمعوا
ليتحققوا الليلة من صحة الضجة التي ثارت حولي .. وهو لم يعد بعد ليجلس
في الصف الأمامي .. لتهرب نظراني المرتعدة إلى دفء عينيه الزنجبي .. لن
يعود أيها البحر .. أفلا تهدأ ؟ ..

الباب يقرع . من يناديني ؟ . أجل .. سأسرع .. وأعود إلى مرآتي .
أتمم زيتي بآلية ممزقة . وجهي مطلي باتقان كلوحة مخمل ابيض ، أخطط
بالقلم الاسود ما سيدعوه الناس بعيني الساحرتين الصق ما سيسمي بأهدابي
الناعمة .. شفتاي .. ارسهما بمهارة عنكبوت هرم .. خدائي لم يكونا بحاجة
إلى الالوان في المرة الأولى .. أثبت شعري برذاذ لزج وأحس بأنني احمل
فوق رأسي شعر امرأة ميتة ..

أتناول عقداً مدهشاً من اللؤلؤ ويخيل إليّ انني سأنوء تحت أثقاله ..
أحشر جسدي في ثوبي الذي لا يزيد اتساعه عن اتساع جلدي إلا بقليل ..
تهوي نظراني على صورة امرأة وقفت أمامي في المرأة سيقول الجميع

انها فاتنة .. لا تنقصها إلا الابتسامة .
 أزيح شفتي قليلاً عن اسناني .. يحتضر بينها ظل ابتسامة .. ألا يمكن ان
 تصمت حكاياتك الازلية ايها البحر هذه الليلة فقط ؟ كفى ايها الامواج
 النادرة .. اعرف ان مركبه قد تاه .. وان دماء الشفق صبغت شراعه ..
 وباندورة . لشد ما تود لو تفديه .. ولكن ..
 الباب يقرع . « لحظة واحدة ايها الرفاق .. لقد انتهيت » ..
 لماذا ينظرون إليّ بهذا الدهول ؟ ..
 أحدهم يقول : « رائحة ، لكن جالك لن يكفي الليلة ..
 قضيت أياماً وأنا ألحن لك « أغنية باندورة » ..
 يجب أن تنشدي بافعال .. كأنها أغنيتك .. دموعي اضاعت طريقها
 إلى عيني .. أحسها تنهمر إلى الداخل .. إلى حيث تفرق مع اللحن المترسب
 في ذاتي .. وأهذي وراءه : سأحاول ..
 تحملني سيارة اطاراتها عاصفة تملق ورياء في الدرب الذي وطئناه منذ
 عام .. (وكانت يدي تتمرغ في دفاء يده .. وكنت مغمورة وسعيدة)
 .. يدي القارغة تحاول التشبث بشيء ما .. لا ظل سوى ظل الصقيع حولي ..
 لا همسة سوى قرعة حطام مركب مهترىء .. ونشيح ملاح ممزق .. باندورة
 لن تجيب هذه المرة .. باندورة لن تجيب .
 أنوار المسرح تنسكب على وجهي شلالات لب جهنمية وأنا أصعد
 الدرجات الرخامية حيث استندت إلى ذراعه ذات مرة وغمرني اطمئنان
 عجيب .. عشرات الاذرع تمتد الآن لتسندني .. أتناول أقربها لاستيعض
 بها عن مظلي ..
 دفاء القاعة يغمرني مع أكلاس من المديح تزهق انفاسي .. رجال
 كثيرون يلتفون حولي ..
 — أقدم لك الناقد .. الاستاذ .. أقدم لك ..

يدي تصافح بآلية بلهاء .. وانا غريبة بدونه .. ضائعة بدونه .. الأشياء
قد فقدت لونها ونيران المجد تلسعني ببرودة كاوية .. وانا طفلة وحيدة في
مدينة انقلب كل من فيها إلى تماثيل اسطورية نحاسية .
ذعر مفاجيء يلهث في قسائمي وانا أصعد المسرح الخشبي .. ماذا أفعل
هنا ؟

المساحيق ثقيلة على نخدي . الاهداب الاصطناعية تكاد تقفز من مكانها
وتتزعزع معها عيني . أريد أن أهرب ، أن أضيع في سهوب بنفسجية يتوسطها
بيت صغير دافئ ومركب لم تذق اخشاب طعم الماء المالح ، وقد استند إلى
أحد جدران الدار بينما يلهو طفل وديع بشراعه ..
وأتلقت مستنجدة باحثة عن عينين ليلهما زنجي ، فلا أجد أحداً ..
أصعد أول درجة من درجات المسرح ومنشار أسى وخناز ينبت في
صدري .. أصعد الدرجة الثانية .. الثالثة .. فات الاوان .. أصعدي يا حمقاء ..
أهوى الصعود ..

أقف تحت الضوء الملهب المسلط .. نحيب الامواج يضيق في دوامة
التصفيق . عباب ضبابية تبتلع عينين ليلهما زنجي .. ولا يبقى سواي .. فراشة
نهوى احراق أجنحتها وتهوى تصفيق الناس لرائحة الحريق ..
شذى محيطات زرق سحيقة يتدفق حولي مع المقدمة الموسيقية التي تعلو...
العيون النقادة تطلي جوانب القاعة .. تغمرني ظلال خوف قديم .. انظر إلى
حيث كان ذات مرة ولا أجد ليل عينية الزنجي .. لقد مضى .. مضى ..
اللحن قد هدأ وكلهم في انتظاري .. يجب أن أغني .. لا أستطيع ..
أنا تمثال ملون صامت . عروس من الورق المقوى . صوتي ضائع .
لم أعد أستطيع الغناء ! ! .

الموسيقى تعيد اللحن من جديد . غمغمة خافتة بدأت تسري في القاعة .
وهو يسيطر فجأة على حواسي كلها .. يجب أن أجده .. يجب أن أفتديه .

ساناديه بأغنيتي الرمادية .. سأبحث عنه ..

أترك لهم ثوبي المحشو بجسدي ، ورأسي المستند اليها على المسرح ..
وانطلق .. أهبط دون أن يبدو ان أحداً قد رأي .. أقف بين الجمهور وأنظر
إلى الجسد المنتصب أمامهم وأشعر انه مضحك مضحك .. كيف استطعت ان
الونه وأرسمه هكذا ؟ .

أتحسس وجهي العاري الذي غسلته نجوم غابة عذراء ، واحديق في
الطين المحشو بين اصابع قدمي العاريتين ، وأشم عبق الاعشاب الندية من
صدري . أشعر بارتياح مدهش .. وأشعر بشاشة وحشية مؤلمة وانا اراها
هناك على المسرح .. دمية من الورق المقوى ، صوتها حبيس في اعماقي ..
أما انا فاني .. أموت إذا لم اغن . أنشد بحرقه وانا انا من
القاعة .

وألقت ورائي قبل أن أمضي ، وأراها هناك على المسرح تفتح فمها
وتغلقه ، والحاني الذبيحة تخرج من خلاله بينما الناس يتأبلون ويتأهون
ويطربون ..

أصفق الباب ورائي وانطلق إلى البحر .. إلى حيث الصخرة أمام الفندق
وأنا أنشد وأنشد عمري المتعب في الحان داكنة هوجاء وأجده هناك ..
اقترب منه .. أضيق في رمال صدره السحرية .. واهوي غجربة تنشج
ويضمني إليه وهو يقول : « سأبني لك داراً من الاصداف ، في كل صدفة
تضيء لؤلؤة » .

وأجيبه وأنا ادمدم : « أريد عقداً من اللؤلؤ » ..
ويظل يضمني أكثر وأكثر .. يغمرني خدر عجيب وسعادة بغيضة
كسول .. الاطمئنان يطفئ جوعي إلى المجهول .. السلام يبعثر لفتتي وحيني
إلى قمر لم يولد بعد .. نشيدي يحتضر .. وأثور على سعادتي معه .. يجب أن
أظل ممزقة مجلدة كي أغني .. وأنا غجربة تموت إذا لم تغن ..

يقترّب منا سرطان تضيء عيناه الحمراءوان وقد استرخى بين رأسيه
خنجر ذهبي مقبضة ذو درجات تشبه درجات مسرح .. أتناول الخنجر
وأخذه في صدر حبيبي ببساطة بريئة. تلوي قسوة ساعديه حولي بينما انا أنمزق
بلذة . أنشد بلوعة وحاسة . يكاد صوتي يضيق في تصفيق حاد مبهم المصدر .
أبحث عن مركب لأرمي بحبيبي ريثما أفتديه ذات دهر .. ولا أجد البحر ! ..
وأبكي فجأة بلوعة أخرس تسحقه صخرة مدبية الخواف .. أحمل حبيبي
بين يدي ببساطة وأرفعه عالياً وأهم .. أضيق به بين الرمال وقدماي المتعبتان
ترسان حفراً تغور فيها ضفادع شامخة تنفق صائحة : « لقد انتحرت
الامواج وجف البحر » ..

ولا أياس ..

واظل أحمله باكية منشدة وانا أدور بها سواحل وسواحل .. وأنا أصعد
جبالاً فولاذية الاشواك .. وأنا اركع في محاريب دامية الغروب .. وأنا اهبط
به ودياناً عذراء الخضرة .. وأنا اضيق به في غابات همجية الاغصان ..
وأنا «باندورة» الثابتة اود لو أفتديه .. واجد الرمل والساحل ولا أجد البحر .
واسمع نقيق الامواج عاتياً واشم ملوحة الماء ولا أجد البحر .
واطارد الشمس علفي أجد البحر حيث تستحم كل ليلة .. ولا
أجده ! !

وتنوح الاصداغ بين الرمال .. ! تبكي لآلىء ادوسها. ولا أعني ..
يرجمني الاطفال بالحصى وهم سيكون لانني قتلت البحر ولم يعد بوسعهم
بناء قصورهم الرملية على الساحل ..

وأعدو مذعورة .. أحاول أن أخفي وجهي في صدر حبيبي .. اكتشف
انه اخفى .. قطرات الماء تنفجر من السماء .. تصرخ قطراتها : « لقد
اضعته .. لقد ذهب » ..

وأدور بين الاعشاب الموحلة ، وأتخبط واهوي وأزحف وأتلوى في

برك الطين .. ولا أجده ! .
 ألتقي برجل يسألني : لماذا تغنين ؟
 — انا لا أعرف سوى الغناء !
 — ومن تنادين ؟
 — انادي حبيبي الذي صار زنبقة في غدير أبدي المساء ، أو طيراً شفافاً
 عجيب الالوان في سماء ما ..
 ويسخر مني الرجل ويقول : اذهبي فأهل المدينة الشمعية ينتظرونك ..
 وأجد في مدخل المدينة كهفاً أركض إلى إحدى زواياه وأصلب نفسي
 عروساً من الورق المقوى ..
 ويأتي ملك المدينة تحط به نسوة من الجص فأسأله : « هل تعرف أين
 هرب البحر ؟ » ..
 — « لقد رحل مع حبيبي وتركنا لك لؤلؤ العالم أجمع .. صوتك جميل
 أيتها الباكية » ..
 يشير بأصبعه فتقرب - مني نسوة جميلات لكنهن خرس فيزينني في
 ركن الكهف حيث صلبت نفسي عروساً من الورق المقوى بينما أهل المدينة
 الشمعية يصفقون .. يصفقون .. يصفقون .. ونشيد يهدأ وكلهم يصفق ١١ .
 أستيقظ من غيوتي .. أجد اني ما زلت هنا فوق المسرح تحت الاضواء
 المحرقة والهتاف يدوي من كل جانب .. راحة .. أغنية « بانلورة » تستحق
 المجد .. تعبر عن اليأس بصورة مدهشة . وأضيع في دوامة التصفيق وأنا
 أحس ان الايدي تصفعني .. وانني أكاد أهوي إلى الارض .. يد تسندني
 وأنا أهبط من المسرح .. « ابتسمي » ..
 وأبتسم . وأشكر .. وامضي مع الرفاق .. وأخرج والضجيج ينهشني .
 الشعر الميت الملتصق برأسي يستحيل إلى ثعابين مسمومة تنسل ببطء إلى
 اعماق دماغي لتختلط بأعصابي في صفائر من عذاب ..

- بقي حفل التكريم ..

حفل التكريم ا .. ولكن ابتساماتي انتهت الليلة .. ولكنه سيصل إلى دمشق بعد قليل .. لم أعد أستطيع .. يجب أن أهرب .. ان أهرب ..

أصل إلى الفندق لاهثة .. أدخل الغرفة وأغلق الباب بالمفتاح . أريد أن أنفصل عن العالم . عن التصفيق . عن كل شيء ..

أنين الأمواج يلطم بعنف هوات أعماقي الدامية . لا فائدة من الانكار . النجوم تصطدم ساخرة من ابعادها المرسومة ، وعاصفة مبهمة تعول في الخواء .. وأنا أقف في الظلمة دون أن أجروء على اشعال النور ورؤية وجهي في المرآة .. أخاف من الوحشية المتعدنة في رسومي ..

شعاع قمر يرتعد خلال زجاج النافذة التي أرى أنها تضيق .. تضيق .. ما كان في العالم قط نافذة أكثر ضيقاً ولا قمر أشد برداً من هذه النافذة وقمرها الهزيل ..

أسمع من بعيد اثنتي عشرة دقة جنائزية لساعة حديدية العقارب . أحس ان الدقات تنغرس في لحمي بوحشية كاوية . أقرب من النافذة لأغلق زجاجها . أراه هناك فوق الصخرة حيث جلسنا منذ عام .. يرتعد تحت لسعات القمر !! .

أغلق النافذة بحدة وأهوي إلى فراشي وأنا أنشج بلوعة دامية . فقد كنت أعلم تماماً ان في هذه الساعة بالذات تصل إلى مطار دمشق طائرة قادمة من بعيد بعيد .. تترنح في ظلمة المطار ثم يهبط منها كثير من الرجال بعضهم يتأبط ذراع حبيبته الدافئ .. حتى إذا ما ابتلعهم مطعم المطار ، صعد رجالان كثييان تفوح منها رائحة سجائر رديئة إلى الطائرة ، وهبطا يتأبوت خشبي من جوفها .. تأبوت يضم عيني شاعر ذهبنا تبحثان عن عقد من اللؤلؤ للحبيبة الطموح ، وعادتا وقد برد ليلهما الزنجبي ..

ولكنني لم أفتدِه .. فات الاوان وجف البحر قبل أن افتديه .. لم أستطع
حتى استقبال جثمانه فقد عاد ليلة حفلتي الكبرى.. أغرس أسناني في الوسادة .
الدموع تهوي في صمت عجيب وتغسل عشرات الاصبغة عن وجهي ..
تسقط اهدابي الاصطناعية على الوسادة وأحسها تتلوى تحت خدي عناكب
موحشة لزجة السيقان .

برادرى شقائق النعمان

السيارة الضخمة ما زالت تترنح في عتمة الدرب وكأنما أسكرتها زجاجات
الخمير المكدسة في جوفها .. الضباط الثلاثة الجالسون في المقعد الأمامي ما زالوا
يعربدون ، وكأننا لم نخلف في القرية وراءنا رماداً في اليادر ولهباً في لحي
الشيوخ ، وسهولاً دامية الحشائش كبراري شقائق النعمان .. أنهم يرمون
بين الفينة والفينة بزجاجة خمر فرغت لتوها .. فتتحطم معولة بين الصخور
المديبة .. وأحس بأن حطامها يزحف على وجهي منشارياً ممزقاً كأستان
قائدنا .. وأنا هنا في مؤخرة السيارة الشاحنة جلست أحرس رجلاً يعرف
أسراراً نهمنا ، ويقول الجرح الدامي في كتفه انه لم يعد بحاجة إلى حراسة .
.. القمر الاصفر يزيج سحابة غزت عن وجهه ويطل متجنباً .. وأرى
في شحوب أهلبه أخاديد الألم في ملامح ابن الأوراس الذي ظفرنا به ..
أخاديد تزداد عمقاً كلما أسرع السائق الثمل وازدادت اسياخ الريح الجليدية
التي تنغرس في جرحه حدة وهمجية .. وأنا أرقبه برعب خاشع ، أنفاسه
المتسارعة تشدني من غيبوتي إلى بقطة لاهثة ممزقة .. تدفعني إلى أن أتأمل
وجهه الصارم ، ورقصة الثقة والهدوء في أغوار عينيه العميقتين ، ونظراته
المحرقة التي كانت تستحيل دافئة حنوناً كلما سقطت على وجهي ونوحني لي
بأن مظهري يشير الشفقة ، واني أفهم فاشلة أضاعت نابها ..

وأظل أرقبه بينما تعاودني نوبة احساس مبهم باللحز تشوبها ظلال
اشمئزاز وامتعاض ، تترج هذه الانفعالات مع رائحة دم بشري حار
تفوح من ثيابي .. وأشعر بدوامات سود من أمي انساني جارف تضيق

حول عنقي . تضيق . تزداد ضيقاً كلما تسللت نظرات أسيري الجريح ،
تمسح ذل آلامي بجبروت ألمها ..

لا أدري ماذا يضايقني وأنا أرى التجارة التي جثت من أجلها إلى هذه
الأرض تثمر وتزدهر ، ماذا يضايقني أنا الذي تطوعت لاقتل ، وقد قتلت
الليلة عشرة جزائريين ؟

أمد يدي إلى جيبي أتحسس عشرين أذنًا بشرية باردة وأدمدم : بقي
عشرون أذنًا أخرى حتى أنال مئة ألف فرنك مع وسام الشرف الفرنسي ..
« تيجارك تزدهر .. ما الذي يضايقك أيها الأحمق » ؟

.. ها قد عدت للتحدث إلى نفسي . صوتي مرعب . يخيل إليّ أنه ينبعث
من كهوف سود مرصوفة بجياجم ذهبية .

أولئك الجزائريون ، لماذا يشتري الضابط ذو الاسنان المنشارية آذانهم ؟
قال لي ذات مرة انه يصدرها إلى فرنسا . تراهم يأكلونها هناك ؟ وهل جثتنا
لنوفر طعاماً لحسان السين ؟

حسان السين ..

بعد أن هربت من سهلي الجميل في ألمانيا ، وقبلت الانضمام إلى الفرقة
الاجنبية في باريس . وكنّ براكات وكرنهات الرائحة .. لم أجد واحدة
فيهن كسوزي .. واذكر سوزي ... ولا أستطيع إلا أن أهذي باكياً مخاطباً
أسيري بلوعة ممزقة : « سوزي كانت جميلة قبل أن أقتلها .. هل تسمعي
أيها المتوحش ؟ » .

لماذا ؟ لماذا ينظر إليّ بهذه الشفقة المرفعة ، لماذا ينصت إلى نحيبي
المحموم وكبرياء ألم فيل يتلوى أخرس بين شفثيه ؟

لا أريد ظل رحمة في وجهه ... ألا يعلم أن أذنيه ستغيبان بعد لحظات
في جيبي ؟ لماذا ينظر إليّ وكأنه يريد أن يهني انساني الضائقة .. كبرياء
جرحه العملاق عبثاً تشدني من أوحالي .. ألا يعلم أنني احلت الاقحوان في

خدي سوزي إلى براري شقائق نعمان دامية ؟ واني في كل يوم أغرس
خنجري في جسد ملتهب فأحيل خضرة حشائش أرضه إلى براري شقائق
نعمان دامية ؟

ما زالت السيارة تقفز بين وهدات الدرب الليلي ، وعلى رأس أسيري
قبعة تكاد تطير دون أن يجد القوة على الإمساك بها .

وينحول احساسي المبهم بالذنب والأسى إلى حنان جارف . أتمنى أن
أحبي جرحه وأمسك بقبعته .. أن أركع أمام صفاء عذابه المبدع وانشج
وأحكي له كيف قتلت سوزي وكيف اقلتها كل يوم من جديد ...

ارتعد .. توقظني زجاجة خمر تهوي ، يحيل إليّ ان حشرة سوزي
تتناثر مع حطامها ..

سوزي ؟

كم كنت أحب تأرجح الشمس بين جديلتيها .. وترنح الشفق على
حقول الاقحوان في خديها .. وأحب ذوب دفء الربيع في همساتها ..
كانت هرة متوحشة رائعة .. تقدمت اليها وفي عيني موقد ودار وطفل
لما يولد .. وقالت انها سترسم نيراناً في الموقد ، وترقص في حنايا الدار ..
وانها ستكون لي أبداً .. وان مهرجان الشمس في جديلتيها كنزي وخدي ..
وظللت أعبدها حتى أطل رجل يحمل قصراً ذهبياً على كفه ، وركع أمامها
فابتسمت له ببساطة وحشية .. وقالت غربان القرية انها له .. وقالت انها
ليست له .. وليلة ارتعد الموقد في عيني برداً ، وجن حنيته إلى الدفء الضائع ،
غرس خنجري في الرقبة الدقيقة ، وتفجر سائل أحمر ، وولدت في
خديها براري شقائق النعمان .. القطة المتوحشة الساكنة في رأسها الصغير
كانت أبداً تموء بأسى جارف وأظافرها تمزق وجهي .. تمزق وجهي ..
ظلت تمزق وجهي وأنا هارب عبر الحدود .. هارب إلى حيث أضواء
باريس تفهقه ليلاً كغانية مخمورة لطختها الاصباغ .. وهناك غرقت في

أوحال السين حتى ثمالة مفعجة ..

وجاء ضابط ذو اسنان منشارية وقال لي : « أنت مجرم فار وسنعيدك إلى بلادك » .. أجابه فتي مشرق الجبين يعيش في أعماقي : « أنا أكره القيود .. سأفعل ما تشاء » قال له الضابط : « هنالك صحاري من تبر .. أذهب لصيد الارانب هناك .. اقتل ، ونحن نشري موتاك لتغذى بلحومها » .. بكى الفتي مشرق الجبين في أعماقي نادياً : « أنا أكره رائحة الموتى ..

— الطيب يفوح من الجثث هناك .

— أنا أكره القتل ..

— اقتل باسم الحرية .. باسم مجد فرنسا .. باسم الشعب الفرنسي المسكين الذي يريدون طرده من أراضيهم ..

وجاء ضابط طويل ذو أنف معقوف وانتحب أمامي : « تصور هذه الحقارة .. كيف يطردوننا من أرضهم التي مضت علينا أعوام ونحن ننهبها .. فنهبها بلطف ورقة دون أن يشعروا . تصور .. أنهم وحوش ، ولا يريدون أن يقاسمونا أرضهم .. ثم ان لحمهم طيب نجبه .. هل ترضى بأن نموت جوعاً ؟

— حسناً سأرحل إلى الصيد وآتيكم بالارانب .

ولكنني أكره القتل .

وتصرخ أصوات حادة تنطلق خلال أسنان منشارية : ولكنك قتلت سوزي .. قتلت سوزي .. قتلت .. قتلت ..

وهرب الفتي الطيب إلى كهوف جليدية في أعماقي ، وانهدمت حوله المنافذ بكتل ثلجية مروعة الهدير .. ومن يومها لم يعد ..

الذكرى تفجر لوعتي . لا أستطيع إلا أن أنتحب بشهامة حمراء مروعة وأنا أهذي : الفتي الطيب لم يعد أيها الجزائري . من يومها لم يعد .. وتلفني اللوامة من جديد .. وأكاد أهوي .. أتمسك بمقبض خنجري

الذي هرب منه فتاي الطيب ولم يعد .. أحس بلمسه البارد الحاد ينتشلي إلى ما يجب أن أكون .. إلى ما صممت على أن أكون .. عشرون أذنًا في جيبي وسام الشرف الفرنسي أضحي قريباً . الشيطان الذي يرقص في عيني بدأ يشدني نحو الجالسين أمامي وقد أنختته جراحه . بعد لحظات سيكون في جيبي اثنتان وعشرون أذنًا ، وسيتأرجح وسام الشرف الفرنسي قرب صدري .

أقرب منه .. انه لن يقوى على المقاومة ، انه ممزق ومتعب . هؤلاء الجزائريون يدافعون عن آذانهم بهمجية . انهم كما قال الضابط لا يشعرون انهم وحوش فعلاً .

أقرب منه أكثر وخنجري يلتصق في شحوب البرد . إنه لا يتحرك . قبعته التي غاصت حتى كادت تمس رقبتة تثير شهوتي لرائحة الدم .. إنه مخلوق مرعب الملوء .. يذكرني بحكايا أمي عن الأشباح التي تنهض من قبورها للتأر وتنفض من كبد الصنم ونحن لا ندري .. لن أتهاوى أمام صمته الممزق ..

أنزع قبعته فجأة عن رأسه فيختطفها بهم الرياح . أمد يدي لأقبض على أذنه بينما أرفع الأخرى لأهوي بالخنجر وأقطع الإذن ، والارنب مرعب الملوء مدهش البلادة .. يدي تقبض على اللاشيء . على اللاشيء ! عرق محموم يكوي وجهي .. الحقيقة تفجر ذعري واشمئزازي .. انه بلا أذنين .. بلا أذنين .. وألف ألف شبح يشد نظراتي إليه .. بلا أذنين .. يجلس هادئاً بصلابة جرحه المدمر . انه يعريني من الشعارات التي دثروني بها في حانة السين .. وأنا الآن أقف عارياً بكل زيفي وحقارتي وضعفي .. أرتعد أمام جبروت جراحه ومجد آلامه .. أدرك ذلك كله بوضوح فاجر يفرض نفسه بقسوة ثعبان يقرض مقلتي .. وهو أمامي بنفسه الآمنة المطمئنة .. يجرحه الغني العاري .. ومكان أذنيه الضائعتين في جيب ما .. في وسام ما يوقظني من

هوات اثمى . ويضحك .. ويضحك ببساطة وسخرية .. ويضحك بمقد
وفخر .. ويضحك كما لم تعول عاصفة وكما لم يهس جدول ، وتحملني
ضحكته إلى غابات زنجية الاشجار أفرس طيورها .. أفرس أرائبها ..
وأظل وحيداً في الغاب .. خائفاً ..

أنا خائف .. خائف كل لحظة أحسست أنفاسه تلسع ظهري أثناء المطاردة ..
كان يستطيع أن يغمد خنجره في ظهري لكنه لم يفعل .. لماذا لم يفعل ؟ لماذا
لم يقتلني هذا الفتى الاحمق ؟ أعرف الجواب ، أعرف كل شيء هذه الليلة ،
وهذا ما يكونني ..

أنوار القرية التي تحترقها السيارة الآن تنسكب على وجه أسيري ..
وأحس أنني أحب بجرحه الخلاق ، وأساه المتناسك وأحب صمت أرضه
المادر وقسوتها الحنون ..

تهوي دمة هاربة من سحابة عذراء في أعماقي الشريفة .. فتدوب
أكلاس الثلوج .. تدوب .. الفتى مشرق الجبين في أعماقي ينهض ببساطة ..
بكبر .. ويكبر ويمد جسده في جسدي .

تقف السيارة فجأة أمام المعسكر ويهبط الضباط الثلاثة متأرجحين
كذنب كلب أجرب .. ييصق الضابط ذو الاسنان المنشارية كلماته في وجهي ..
أحضر أرنينا الحقيير إلى المرقص .

حقير .. ألا ترون صفاء غدير استوائي في عينيه ؟ نبع الحياة المجنون
في كرامة نضاله ..

— لماذا لا تتحرك يا جيان ؟ هاته إلى المرقص .. المرقص ..
وتهتز أمام عيني صورة المكان الذي عناه الضابط ... ديدان وهوام ،
وجدران طحلبية عفنة .. أسود برية شدت أطرافها إلى مقاعد حديدية ،
وأوصلت بأسلاك مشحونة بالكهرباء تنتفض برعشات عذاب هائلة كلما ضغط
ذو الاسنان المنشارية على أحد الازرار مهلاً صاحكاً .. فالتشنجات المستعيرة
لا تثير فيه أكثر من ذكرى اهتزازات زنود غايات السين عفنة الصفرة .

أحد الضباط يصرخ ثملاً ضاحكاً : « نحن شربنا وأنت ثملت .. أسرع
به إلى الداخل أيها الأحق » ..
أقود الأسد ذاهلاً إلى حيث العذاب .. أتخشى أن تتلامس نظراتنا . ثانية
واحدة كافية ليحرقني ، ليسحقني بوجوده المدمر .. بكيانه المبهم المسيطر ..
- اقتلع أظافره يا جبان .. لعله يعترف قبل أن تقتله ..
يداه مقيدتان .. الملقط يرتعد في يدي .. لا أجروا على قص شاربي
الاسد .. لا أستطيع .. لا أريد ..

لكنه صامت لا يتلمل .. صامت كقمة جبل ..
الضباط ينق في زاوية الكهف وأنا لا أسمع شيئاً .. الآذان الهامدة في
إحدى جيوبتي ثقيلة تشدني إلى الأرض .. تنهش من كبدي وكأنما تحولت
كل اذن إلى ذئب مجنون العواء .. تتعلق نظراتي بالديدان المتمرغة في
صديد الغرفة .. وأراها تقرض سمعة فرنسا .. وأراها تلعق سمعة فرنسا ..
وفي كل زاوية تلسع العقارب الاقدام العارية لجموع ركضت ذات يوم
لتحطم الباستيل .. وأتماسك والآذان تشدني إلى الأرض .. إلى حيث أغرق
مع العفن طعاماً لهوام القبور .. براري شقائق النعمان تفهقه في الخواء مع عويل
الرياح .. تفهقه ساخرة .. الجهاجم الذهبية تتناثر حولي .. السقف الاسود
يقرب مني .. القطعة الوحشية الساكنة في رأس سوزي تموء مجنونة .. السقف
الاسود يقرب .. الجريح يتلمل على مقعده .. انهم يعذبونه وأنا لا أرى
شيئاً .. لا أريد أن أرى .. ولكنني لا أستطيع إلا أن أسمع كلمات وخازة
تنطلق من بين أسنان منشارية مغمورة : « أيها الجبان .. أقتله أو تقتلك ..
خذ المسدس .. اقتله لأجل شرف فرنسا ... اقتله » .. المستنقع ينسكب
من فمه ..

نظراتي تتلوى على وجه الجريح الحنون ، وبالرغم من عذابه
أرى شبح ابتسامته يلثم وحدتي ، يقول انني لم أعد جباناً ..
- اقتله يا جبان ..

لم أعد جبناً .. هذا ما تقوله عينك أيها الجريح .. كم أتمنى أن أقف
ولياك في ليلة صفت سهاؤها ، وتلاأت نجوم غسلتها عاصفة مختصر ..
نقف بين أكوام الرماد الذي تذروه الرياح .. تظل تذروه حتى تكشف
عن برار قديمة الخضرة يضحك فيها أطفال في أقدامهم أحذية .
وأحدثك هناك وأنا أبكي ضياعي .. وأحدثك وأنا أضحك فرحاً لأن
لك أذنين .. وأطير ببساطة إلى كوخ الضائع قرب جدلين تتأرجح
الشمس بينها ..

الضابط يصرخ بي والنار تندفع من مسدسه :
— مت أيها الجبان .

ملتهبة هي الأفق التي انقضت على صدري أيها الاخ الجريح .. اللوي
الهائل يدفعني إلى الارض ، أهوي ، والديدان والموام تهرب .. تبعد عني ..
نظراتي متخاذلة لا تقوى على التسلل إلى وجهك أيها الانسان .. ألا تقترب ؟
أريد أن أعرف ماذا في عينيك أيها الانسان العجيب ..
الفتى مشرق الوجه الكامن في أعماقي ينطلق مع حشرحتي يقترب من
وجهك باصرار معذب .. يلتصق بمقلتيك متشبهاً متأملاً .. يرى فيها بوضوح
ظل احترام ورضى ويرى أنها تهتان .. أيها الشجاع ، لم يكن بحاجة إلى
أكثر من ذلك أيها الصديق الجزائري ..
وأرى الفتى مشرق الجبين يغيب .. يغيب عن أشلائي محابة وردية
في سماء براري شقائق النعمان بصدرها جوع نهم إلى أن تنعقد مطراً يوماً ما
تفصل قطراته الاعشاب الدامية بحنو وندم ..
ويهوي القبو في دوامة نحر ساء المدير عديمة الالوان وتظل الديدان
تنغذى بالصديد وبسمعة فرنسا .

فهرست

٥		اهداء
٧		عيناك قدري
٢١		الأصابع المتمردة
٣١		ما وراء الحب
٤٥		القطعة
٥٥		أفنى جريح
٦٥		مغارة النسور
٧٥		الطفلة محروقة الخدين
٨٩		رجل في الزقاق
١٠١		في سن والدي
١٠٩		المدللون
١٢١		هاربة من منبع الشمس
١٣٣		الهاوية
١٤٣		لو
١٥١		الفجر عند النافذة
١٥٩		قتلته لاغني
١٧١		براري شقائق النعمان



انهم سبل الحرف من بين أنامل غادتنا . فاذا نحن
على موعد مع أكرم بيدر . اني ارشح هذه الكاتبة
للمجد

نزار قباني

لا أستطيع إلا أن أتوقع من هذه الكاتبة غزوات
ضخمة في دنيا الأدب

موسى صبري

إن غادة تعاني وتعي ما تعانيه . وتحاول أن توجع
لنا لوحات عنيفة عن انبثاق الكائن الإنساني في الأثنى
العربية

مطاع صفدي

هنا قلم رفيف . ونفس تستطيع أن تستخدم كل لون
في الصورة التي تلائمها . وشاعرية خصبة طالما افتقرت
إليها قصتنا

خليل هنداوي

منشورات غادة السمان



To: www.al-mostafa.com